محمود عبد الشكور

أشباح مُرْجانة

دار دَوِّن

رواية

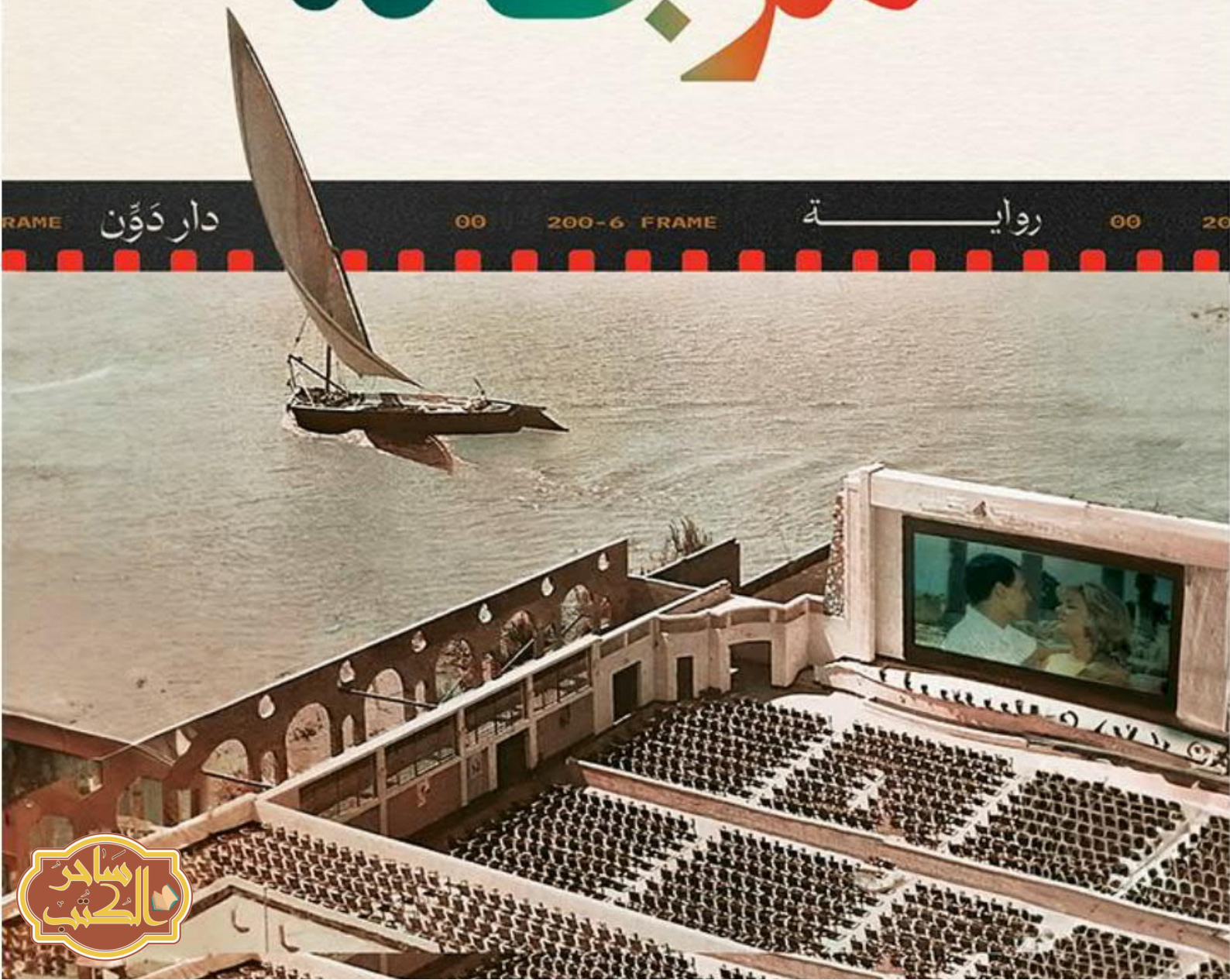

محمود عبد الشكور: أشباح مُرجانة، رواية

الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٤

رقم الإيداع: ١٩٧١٨/ ٢٠٢٣ - الترقيم الدولي: ٥ - ٣٧٤ - ٨٠٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

جَميعُ حُقوقِ الطَبْعِ والنَّشرِ محفُوظةٌ للناشِرْ

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة

بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب
لا تُعبر عن رؤية الناشر بالضرورة
وإنما تعبر عن رؤية الكاتب.

© دار دَوِّنْ

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر
Mob +2 - 01020220053
info@dardawen.com

إلى جيل التسعينيات

مُروضي الأشباح والكوابيس

"إنما أحدثك لترى، فإذا رأيت فلا حديث"

(النفّري / المواقف والمخاطبات)

"لا شيء يذهب.. لا شيء يموت".

بهجت الساعاتي

"ليه أحلامنا بتتحوّل لكوابيس؟".

صبري البنا

-١-

عم فرج

قال عم فرج، وقد أغلق عينيه، ليتفادى نور الشمس:

- مش عارف أجيبهالك إزاي يا باشا.. بس العفريت بدأ يلعب تاني.. بيصرّخ قرب الفجر.

أخبرني العجوز الخرِف من جديد عن شبح القتيل المدفون أسفل شاشة العرض، فأدركت أنني عدت من جديد إلى المورستان القومي، لعنته في سري، ولعنت نفسي التي طلبت فرصة، حظي الأغبر يرافقني في كل مكان.

منذ شهر، قبل هذه اللحظة العبثية، كنت أمام المبنى الرمادي البائس، أتأمل أفيشات ملونة ممزقة، سيقانًا وأفخاذًا مرسومة، وعناوين مبتورة، مصري وهندي وتركي، وبالأزرق الباهت كتبوا عبارة مائلة معلّقة في الفراغ:

"في بروجرام واحد".

أعلى الواجهة، وباستخدام الخشب المفرغ، كتبوا بالخط الفارسي، وباللون الأحمر، اسم دار العرض العتيقة: مُرجانة"، تحملها فتاة من خشب، تبدو كنسخة بائسة من سامية جمال في فيلم "عفريتة هانم"، مثل جنيّة المصباح السحري، ضاعت الملامح والتفاصيل، وبقيت على المجسم الخشبي ظلال بيضاء وحمراء وصفراء، وأعين جاحظة، لم يحسن الرسام نقلها، ولكنها تخطف النظر من الأفيشات، لحجمها الكبير.

لم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام، مالت شفتي إلى أسفل، معلنةً سخرية كاملة، وخرج صوت من أنفي ذكّرني بصديق إسكندراني، فكرت في أن المسخرة قد بدأت، ولكن لا بديل عن اللعبة، ولا مفر من المحاولة.

أدرت بصري حول المكان، لأكتشف إمكانات المحاولة، فشاهدت دكانًا صغيرًا أقرب إلى الوكر، إلى اليسار من باب السينما الحديدي الأخضر، الذي تقشر طلاؤه، وفي داخل الدكان، كان رجل بجلباب أسود، وطاقية، يقرأ الأهرام، يقرب النسخة من نظارته مستغرقًا، بينما يتحسس شعر قطة برتقالية جالسة فوق حِجره.

كانا مثل كتلة رمادية في قلب سواد، لا يجعلك ترى شيئًا من معروضات الدكان، وفوق المدخل الصغير، كانت هناك لوحة سوداء، خالية من الكتابة.

تجاوزت العجوز والقطة إلى اليسار، أنزلت شنطة الكتف الصغيرة، ووقفت أتأمل صخب السيارات المتزاحمة في اتجاه كوبري عباس، مررت بنظري سريعًا باتجاه الكوبري، في لفة دائرية، وعدت إلى وضعي الأول في مواجهة السينما.

اقتربت بهدوء من صاحب الدكان، خلعت الكاسكيتة الزرقاء، ونظارة الشمس، وراهنت نفسي أن الرجل رآني فعلًا، ولكنه يدّعي الاستغراق في القراءة، وأنه سيقفز قبل أن أنطق بالتحية والسلام، ولكن لا الرجل ولا القطة، تحركا أو شعرا بي، رغم أنني تقريبًا كنت فوقهما مباشرة.

- سلامو عليكم يا حاج.

دون أن يرفع رأسه، جاءني صوته رفيعًا متعبًا:

- وعليكم...

تعمدت أن أرفع صوتي، وأن يصل إليه أنه يتحدث مع شخص فارغ الصبر.

- بادوّر على عم فرج.. ألاقيه فين؟

رفع رأسه عن الجريدة أخيرًا، أزاح القطة عن حِجره، وحملق الرجل في وجهي، مضيقًا عينيه، فرأيت وجهًا أسمر رفيعًا، كوجه الفأر، نبتت شعيرات بيضاء حول خديه، وامتد الشعر الأبيض إلى سوالف قصيرة ظهرت أسفل طاقية سوداء، وعندما فتح عينيه، كانتا ضيقتين، لدرجة أنني تخليت لوهلة أنه لم يفتحهما بعد.

قال الرجل بتشكك بعد أن وقف:

- خير يا باشا.. عايز منه حاجة؟

"ملعون أبوك يا أخي!".

كدت أقولها له تحت ضغط شمس الظهيرة، وخيبة الأمل، وكراهية الفهلوة واللف والدوران، وصدمة العودة إلى كل ما هربت منه.

ألا يتغير هؤلاء الحمقى؟ أذهب وأعود، وينقلب العالم، وتنهار الشيوعية، وتشتعل الحرب في البوسنة والهرسك، وتُحتل الكويت وتتحرر، ولا يتبقى سوى سنوات على نهاية الألفية الثانية، ولكن لا شيء يتغير في وادي السكون والجمود، كله على وضعه في مكانه.

ابتلعت غضبي في لحظة، وتحولت الشتيمة المعلّقة على اللسان إلى نفخة هواء:

- عايزُه وخلاص.. لو مش عارف ألاقيه فين قولي أسأل غيرك.

نفض الرجل عن جلبابه رماد سيجارة عالقة، وابتسم، فظهرت بقايا أسنان صفراء، جذورها سوداء، وارتفع حاجباه في دهشة.

- الله؟ الكلام أخد وعطا.. والسؤال ما حرومش يعني.. روق بس يا باشا.. أعملك شاي؟ ولا تشرب ساقع؟

هذا النطع سيجعلني أرتكب جريمة، ولو كانت هناك لقاءات ثانية، سأقتله حتمًا.

من أنت أصلًا؟ الأمر لا يستأهل كل هذه الثرثرة، من أين يأتون بكل هذه التلامة؟ وكيف يضيعون الوقت بكلام فارغ؟ هل يعرفني من قبل؟

أي رد سيطيل حالة العبث والصداع، يعوضون حياتهم الفارغة بالكلام والإرغاء، مثل سائق التاكسي، الذي حملني من المطار إلى الفندق، والذي حكي لي قصة حياته، ومشكلات ابنه الفاشل في الثانوية، ونوادره مع سائحة ركبت معه، حاولت إغواءه، ولكنه رفض، متذكرًا قصة سيدنا يوسف، وأنهى ثرثرته بإبداء سعادته بتنصيب بطرس غالي في الأمم المتحدة، رغم أنه "كوفتس وراسم صليب على إيده".

استدرت موليًا ظهري للرجل، مشيت خطوتين، فسمعت همهمة وهرولة وبرطمة من خلفي، وصوتًا رفيعًا يهتف:

- أنا فرج يا باشا.. خير إن شاء الله؟

منعت نفسي من إخراج صوت إسكندراني جديد من أنفي، ضحكت وأنا أعود إليه:

- أخيرًا يعني.. أنا فؤاد الساعاتي.. حفيد بهجت الساعاتي الله يرحمه.

شهق فرج، فشخ فمه ضاحكًا بصوت عالٍ، كحّ وسعل، لم أفهم ما يدعو إلى هذه الضحكات المتتالية، إلا لو كان مسطولًا.

- ما تآخذنيش.. الواحد برضو بيقلق.. وما حدش بيسأل عني إلا لو كانت وراه مصيبة.. آخر مرة خدوني القسم يسألوني عن حاجات كدة بتحصل بالليل في السيما.. الواحد مش حمل بهدلة.

- أيوة يعني.. إيه اللي يضحّك في كدة؟

تأمل فرج تعليقي الممتزج بضجر قديم، صمت مفكرًا، باحثًا عن كلمات لوصف ما فعل، فتخيلت أنه ضحك دون أن يفكر، كرد فعل على مخاوف عميقة، الضحك يخلصه من الخوف.

فهمت بعد أن عرفته جيدًا، أنه لا يحتاج إلى مخاوف لكي يضحك، ولكنها فواصل صوتية لا تعني سوى أنه يحتاج وقتًا لكي يستوعب مفاجأة ما.

تجاهل فرج الرد عن سؤالي، عاد إلى الدكان المظلم، فتح نورًا جانبيًا، وأخرج مقعدًا من الداخل، أحضره لي وطلب مني الجلوس، وهو يردد عبارات التحية والسعادة، ولأول مرة أشاهد ما يبيعه في الداخل على أرفف خشبية متباعدة: مناديل ورقية، أكياس شيبسي،

سجائر، بالونات أطفال، لبان، طوفي، أقلام جاف مزروعة في كوب زجاجي، أنواع رخيصة من البسكويت، وكمية من المسواك، والسُبَح.

قال فرج:

- ده انت الغالي حفيد الغالي.. بهجت باشا ده هو اللي رباني.. لحقت أيام السينما لما كنت تشوف أنوارها من الروضة.. أيام هنا وسرور.. ربنا يرحمه ويرحم والديك. كام معلقة سكر؟

كان قد انتهى من صنع الشاي، وبدأ بصبه من الكنكة الصغيرة، بعد أن أطفأ السبرتاية، أخرج علبة السكر، ووضع في كوبي الكبير ملعقتين بناءً على طلبي، بينما وضع أربعة ملاعق في كوبه الصغير.

- باشربه حبر وزي العسل، عادة مش عارفين نبطلها.. الواحد تقريبًا عاش حياته كلها في مصر.. بس فلاح فلاح يعني.. وبنتي كمان...

قبل أن يبدأ ثرثرة تفقع ما يمكن أن يُفقَع بسهولة، قاطعته متأففًا:

- الحقيقة أنا ماكنتش عايز أرجع.. ولا أشوف الزحمة دي تاني.. بس المتر موريس اتصل بيا وبلغني بوفاة جدي.. ولازم كمان إجراءات وحاجات عشان أنا الوريث الوحيد للعيلة.. فتحت شقة السيدة ونقلت فيها بعد الفندق.. من أسبوع كنت في البلد.. وشفت بيت قليوب.. حاجة سيئة جدًا.. مش عارف جدي كان بيقعد هناك إزاي؟ وأخيرًا جيت أشوف مرجانة...

اهتزت يد فرج، وهو يشفط الشاي، نظر إليّ من أسفل نظارته، لاحظت لأول مرة أن "شنبر النظارة" ملحوم مباشرة فوق أنفه الطويل.

- كله تمام يا باشا.. السيما في الحفظ والصوت.. قفلها الباشا الكبير من سنين.. مكانش فاضيلها خلاص.. لكن كله موجود.

قال "كله موجود" بصوت خافت ملتبس، حتى ظننت أنه قال: "كله دود".

استأنف فجأة:

- وبنتي باتعة كمان عاملة حس وبتشقّر كل شوية.. بتسند أبوها اللي بيحرس المكان.

كنت أتأمل السُبَح وأكياس الشيبسي، وأسأل نفسي عن هوية هذا الدكان العجيب، وعلاقته بالمكان، فجاءني رد السؤال الصامت من فرج، وكأنه كان يسمع خواطري.

- الدكان ده حضرتك من سنتين بس.. القرشين اللي كان جدك بيبعتهم ما بيكفوش الدخان.. فأنا قلت ما فيش سينما دلوقتي.. ناخد الحتة بتاعة شباك التذاكر.. نهد الحيطة ونعملها دكانة.. لكن لو سعادتك مش عايز.. نرجعها تاني.. شباك تذاكر مقفول...

يبدو أنني يجب أن أتوقف عن الدهشة، إذا أردت أن أتعامل مع هؤلاء البشر.

ابتلعت ذهولي، وتجاهلت التعليق، مؤجلًا الرد إلى فرصة قادمة، من الواضح أنني سأتعامل مع فرج، وأنه سيكون مفتاح اكتشاف المكان، قبل أن أقرر ما سأفعله في ميراث بهجت الساعاتي.

ما أزعجني حقًا أن جدي غريب الأطوار والتصرفات، العصبي ذا الأصول التركية، وابن الأعيان، كان يجد وقتًا وصبرًا لكي يسمع

فرج، وكان يجد وقتًا وصبرًا ليأتي إلى سينما صيفية يملكها، ويحصّل إيراداتها، ثم يعود إلى قليوب ليتعامل مع الفلاحين الذين يزرعون أرضه، ويهرب من جديد إلى صالون شبرا الأدبي، فيسمع الجميع أشعاره الخائبة، وقبل كل ذلك عليه أن يجد وقتًا وصبرًا في ترويض عشيقاته، وفي الشجار مع ابنه اليساري الغاضب، أبي.

عائلة مجانين، وأنا آخر سلسال المورستان العائلي.

وقفت قائلًا بحزم وبصوت محايد: "طيب"، وأكملت: "افتح بوابة السينما".

قفز فرج من مكانه بخفة، واضعًا ثمالة الشاي على أقرب رف كيفما اتفق، شخلل سيالة الجلابية، ثم أدخل يده مُخرجًا عدة مفاتيح، مختلفة الأشكال، ومتجهًا إلى البوابة الحديدية، حملت شنطة الكتف الجلدية السوداء، ووقفت خلفه، في انتظار أن تنفتح مغارة مُرجانة.

فكرت في أن علينا أن نهتف: "افتحي يا مُرجانة"، فينفتح الباب، وتظهر الكنوز، "دهب ياقوت مرجان"، ثم أصرخ من الفرحة: "أحمدك يا رب"، ولكن باب فرج انفتح على ممر ضيق، له رائحة عفنة، سرنا فيه حتى نهايته، ثم ظهرت ساحة واسعة، تراصت فيها مقاعد خشبية، على هيئة صفوف، الكثير منها محطم ومهشّم، ولكن المسافات بين الصفوف، والممرات والفراغات، ظلت محفوظة، وفي نهاية الساحة، ظهر حائط الشاشة الأبيض، وأسفله مستطيل أسود بعرض الشاشة كلها.

تأملت المباني المطلة على الشاشة، فوجدتها مكدسة في جانبين فقط، واجهات شبابيك مغلقة، ونصف مفتوحة، وبلكونات حجرية

قديمة، وفي الخلف ظهرت أبراج حديثة مشيدة، مدينة أخرى تزاحم المدينة الرمادية.

قادني فرج إلى اليسار، حيث تكدست عدة دورات مياه متهدمة، مثل خرائب مهجورة، تركث فرج يدخل، ووقفت عند المدخل، طالبًا منه أن يعود بنا إلى الساحة، هناك على الأقل، ليمكن أن نتنفس بعض الهواء، بعيدًا عن هذا العطن.

عند العودة، لمحت حبل غسيل في زاوية مستترة بعد ممر الدخول إلى اليسار، وقد نُشرت عليه جلابية وكلسون وعدة طواقٍ.

"كِملِت.. فرج وضع بصماته في كل مكان".

قلت في نفسي.

نظر فرج إلى الأرض، وكالعادة قرأ سؤالًا لم أقله، فأجاب:

- شيء لزوم القعدة والحراسة يا باشا.. أنا خدت كمان أوضة المكنة فوق عشان أبات فيها سعادتك.

قلت ساخرًا:

- فوق فين سعادتك.. هو لسة فيه فوق؟!

كنا من جديد عند الردهة المظلمة، لم أنتبه إلى ستارة حائلة اللون، إلى درجة يصعب كثيرًا أن نعرف لونها الأصلي، تقدمني فرج فأزاح الستار، لأجد سلمًا مهشم الدرجات، أخذنا إلى ساحة أصغر، اصطفت فيها مقاعد خشبية أيضًا، وفي الخلف، في المنتصف بالضبط، ظهرت كابينة العرض، ببابها الخشبي القصير، ولما دخلنا، كانت هناك آلة

عرض عتيقة، وُضع أسفلها سرير خشبي منخفض، عليه مرتبة خرج من جوفها قطنها الأسود، وفي أعلاها مخدة صغيرة نظيفة، عليها غطاء مزركش بالورود الصفراء، بينما وُضع كرسي خشبي، عليه راديو صغير في زاوية بعيدة.

استغربت أن يتسع مكان الكابينة الصغيرة لكل هذه الأشياء المكدسة، اقتربت من الشباك الصغير للكابينة، فرأيت الساحة الكبرى، والشاشة البيضاء ما زالت شاخصة مندهشة، صامتة، تريد أن تتكلم، ولكنها لا تستطيع.

كانت سجينة الشباك الصغير، حيث ترقد آلة العرض الميتة.

شعرت بغثيان، وبرغبة عارمة في القيء، فجلست منهارًا على السرير المنخفض، ولكني رفضت مساعدة فرج.

تركت يديه معلقتين في الهواء، في وضع الإنقاذ، وطلبت منه الصمت والهدوء، حتى أتخلص من الدوار.

قلت في هدوء، دون مراعاة لشعوره:

- المكان في الحقيقة زبالة.. ومش عارف مين مجنون ممكن يشتريه.. ولو اشتراه يمكن يدفع فيه ملاليم.

ضحكة فرج العصبية انطلقت دون تمهيد كالمعتاد، ولكن رده كان أسرع مما توقعت:

- ولا بيع ولا شرا.. الزبالة تتنضف.. والسينما ترجع زي الأول وأحسن.. وفيلمين تلاتة حلوين عربي وهندي.. والحالة تشتغل زي زمان.. بالليل المكان أُنس وتحفة.

وكعادته في لضم حكاية بحكاية، قال فرج:

- والله الباشا الكبير كان دايمًا يجيب في سيرتك.. كان شايفك أنجح واحد في عيلة الساعاتي.. باشمهندس قد الدنيا.

حملقت في الأرضية القذرة، ثم رفعت عينيّ إلى العجوز الثرثار، واصطنعت تعبيرًا محايدًا، لا يستطيع أن يفهم منه أي شيء.

حتى تلك اللحظة، لم أكن قد قررت شيئًا عما سأفعله بالميراث، لم تكن المشكلة في هاجس العودة إلى دبي، صاحب الشركة سمح لي بإجازة طويلة، جزاء جهد مستمر سابق لسنوات، دون يوم إجازة، ولكن كانت المشكلة في فوضى لقاء الماضي المتنكر في صورة عقارات وأراضٍ، وفي شكل شقة السيدة ومُرجانة وكوبري عباس وقليوب.

كنت أعاني غربةَ العودة إلى الوطن، وإلى الذكريات، وغربةَ اكتشاف الأماكن والعبث.

قد أبقى لشهور لو أحببت، وقد أنفجر غاضبًا لأبسط سبب، فأذهب هاربًا إلى المطار، قد أصبر حتى أكتشف الاستثمار المناسب لميراث الساعاتي الكبير، وقد يفرغ صبري فأترك كل شيء، لمن يطلب الشراء، مهما كان الثمن رخيصًا.

كنت مشوشًا وحائرًا، وكأن في داخلي شخصًا يتعارك مع شخص آخر لا أعرفه، حتى الآن ما زلت أتحكم في شجارهما، ولكني أخشى أن أفقد السيطرة، وأن يسمع الناس في الشارع سبابهما المتبادل.

في ذلك اليوم الحار من شهر يوليو، لم أخبر فرج بأي قرار، ولكني

أصررت على أن يستعين بمن يساعده على تنظيف المكان، مهما تطلّب الأمر من نفقات، فالسينما لا بد أن تكون نظيفة، حتى لو بعناها لن تباع أبدًا مثل خرابة.

طلبت نسخة من مفتاح السينما، واطمأننت بنفسي على وجود الماء والكهرباء، المرحوم كان حريصًا -كما قال فرج- على دفع كل الفواتير، رغم أن السينما توقفت منذ سنوات.

حيرني ذلك كثيرًا، لماذا توقفت السينما فجأة؟ وهل لذلك علاقة لما حدث لأبي وأمي؟ لم أهتم وقتها بأن أعرف السبب من جدي، كنت قد ودعت الماضي بأكمله، كل الجسور يجب أن تحترق، لكي أبدأ حياة جديدة.

علاقتي بجدي بهجت الساعاتي ظلت دومًا واهية، يقولون إنني أقرب الناس شبهًا به، بعينيّ الزرقاوين، وببشرتي البيضاء، وبالشعر الأشقر، وبهذا الطول الفارع، وبنبرة صوت غليظة وخشنة، تتناقض مع وسامة بادية.

ولكني أبعد ما أكون عنه طبعًا ومزاجًا، لا أعرف هذه الفوضى، ولا أحبها، ولا أفهم معنى أن تترك نفسك للتيار والظروف، لست فنانًا، ولا مهووسًا بالسينما، ولا أحب العاطلين بالوراثة، ولا الذين لا يجدون ما يفعلونه، فيجربون كل شيء.

أحب النساء مثله، وأحب الملابس مثله، ولكني أكره الحياة العشوائية، ومتاهة الصعلكة، لا أتذوق الشعر، ولا أعرف أصلًا هل كان جدي شاعرًا أم أنه كان مدعيًا؟

لم أحب تدخُّل جدي في حياة أبي، ولا مناقشاتهما العنيفة، يقول جدي إن ابنه لا يجب أن ينغمس في السياسة، ولا أن ينضم إلى "شوية مقاطيع" يريدون أن يسلبوا الأغنياء أموالهم، ويقول أبي إن من يقبل الظلم، ويوافق على مأساة الفقر، لا يستحق لقب إنسان، العقل وحده يمكنه أن يحقق العدل.

عالمان أبعد من المسافة بين السيدة وقليوب، وأنا فؤاد عمّار بهجت الساعاتي، حفيد الباشا، وابن المحامي الشيوعي النبيل، أنا فؤاد الهارب من الوطن إلى الغربة، والعائد إلى غربة الوطن.

تأملت وجه فرج وابتسامته، تعجبت لأنه اقترب من الباشا، الذي كان يؤمن بالفوارق الطبقية، ويرفض أن تتساوى الرؤوس، ولكنه يمتلك خيالًا وبساطة أصيلة، لديه مزاج فنان، ويحلم بأن يكون شاعرًا معترفًا به.

في الزيارة التالية لسينما مُرجانة بعد عدة أيام، لاحظت أن فرج نفّذ الأوامر كلها، تم غسل الأرضيات، وتنظيف الحمامات، وإزالة الشتائم والعبارات الفاحشة المكتوبة على أبوابها وجدرانها، غُسلت الستائر، ونظف العمال الواجهة الخشبية، وغسلوا الشاشة البيضاء، وأزالوا أكوام الأتربة عن المقاعد، وإن ظلت مهشمة ومكسورة.

لمّعوا ماكينة العرض، ولكن ظل سرير فرج البائس في مكانه، مثلما ظل دكانه في موقعه المظلم.

أجلت ترميم وبعث شباك التذاكر إلى وقت لاحق، لم أحب أن يراني فرج قاطعًا للأرزاق في وقت مبكر، وإن كنت لا أضمن أن أقطعها في مرحلة تالية.

في زيارة ثالثة، اخترت أن أذهب مساءً، وأن أرى قاعة العرض مضيئة.

جلست مع فرج على كرسي متماسك، وتحركت نسمة صيفية طرية، جعلتني أفكر في أن المكان يستحق فرصة، وأنه يمكن استعماره بالمشاركة مثلًا، وقد نفكر في تحويله إلى سينما شتوية.

لطشتني نسمة هواء، فتذكرت أيام الجامعة، وجولات المشي المسائية مع الشلة، وثرثرة الأحلام أسفل تمثال نهضة مصر، لذة الأمل الساذج، جمال الغفلة، ونشوة السعادة المجانية، دون تعب أو جهد، فقط عليك أن تقول وتتخيل، وعلى التمثال المضيء أن يستمع في صمت.

ولكن فرج قطع الذكريات بأغرب حكاية:

- سعادتك السينما جميلة أوي.. بس فيه كدة موضوع خايف أحكي عنه تقول الراجل عبيط ولا مجنون...

قلت في بساطة:

- الحقيقة إنت مش محتاج حكايات عشان أقول عليك كدة.

صمت فرج، وحملق في الفراغ، فخمنت أنه يحاول أن يفهم معنى ما قلت، فلما أتعبه ذلك، قفز مباشرة إلى حكايته:

- كل يوم بنام في الكابينة زي ما سعادتك عارف.. ده بيحصل من ساعة ما بطلنا نشغل السيما.. قبل كدة كنت برّوح المنيب.. وأرجع تاني يوم.. كل حاجة كانت تمام.. لحد من فترة كدة.. قبل الفجر

بساعة.. بدأت أسمع أصوات صراخ جاية من ناحية الشاشة كدة.. قدامها بالظبط...

نظرت إليه بتمعن، ظننته يلقي نكتة، ولكني وجدته يتحدث بجدية، بل إنه يبدو خائفًا وهو يستعيد المشهد:

- كذّبت نفسي مرة واتنين.. لكن في كل ليلة أسمع الصوت.. أقرى قرآن وأنام.. حكيت لبنتي باتعة، فاستغربت.. قالت ممكن يكون جن أو عفريت.. لو كان الصراخ ممكن أستحمل.. لكن كان فيه كمان صوت تكسير وخبط ورزع.. والصبح ألاقي الكراسي زي ما انت شايف...

لوهلة فكرت أن أقطع حكايته بالقيام والمغادرة، ثم خطر لي أن أكمل التسلية، فأبديت اهتمامًا بالتفاصيل، بمستوى صوت العفريت، بموعد ظهوره بالتحديد، وبالمكان الذي يصدر منه الصوت، سألت عن تاريخ المبنى، ونوع الأخشاب المستخدمة في الكراسي، قلت لنفسي إنها ليلة ظريفة على وجه العموم، ولا بأس من بعض الفكاهة والخيال، لكسر هذا الواقع الجاف والقاسي.

فرج وجدها فرصة، فانطلق ساردًا ما سمعه في طفولته عن رجل ذبحوه ودفنوه في أرض بُنيت عليها السينما، ليس بعيدًا كما قال أن تكون هي المنطقة أمام الشاشة مباشرة، ولكن لا يوجد تفسير لانقطاع الصوت لسنوات، أو عدم وجوده، ثم ظهوره من جديد، لا تفسير ولا معنى، ولكن "وكتاب الله المجيد"، كما قال فرج، الصوت يأتي قبل الفجر بساعة، لا يتأخر عن موعده، صراخ وتكسير، أو تكسير دون صراخ، أو صراخ بلا تكسير.

ضحكت فجأة، فارتبك فرج، وقفت وغادرت دون تعليق، وفي اليوم التالي التقينا صباحًا أمام مدخل السينما، تكلمت في موضوعات كثيرة، باستثناء قصة شبح السينما، أردت أن يصل إليه أنني لم أسمع شيئًا مما حكى، أو أنني سمعت فلم أهتم، أو اهتممت ونسيت.

كلما التقينا يظهر كلام معلّق على لسان فرج، وكأنه يعاني الصمتَ، حتى جاءت فرصة لقاء آخر، فأخبرني بأن الصوت قد توقف تمامًا في الأيام الأخيرة، فأبديت اهتمامًا ظاهريًا، وبعد أن سألته عن أي صوت يعني؟ سمعت من جديد حكاية الشبح، فقلت معلقًا بصوت هادئ:

- طيب الحمد لله.. عشان كمان نقدر نشوف شغلنا.. عندنا حاجات كتير لازم نعملها.

لمحت خيبة الأمل على وجه الحارس العجوز، كان ينتظر سعادة أكبر، واهتمامًا أعمق،وكان يرى أنه يستحق التعاطف، والتهنئة على صموده في مواجهة الصراخ والتكسير، كان يريد بعض الونس والحكايات والعرثرة، وكنت أشعر بالملل ونفاد الصبر، وأقضي معظم وقتي في متابعة المتر موريس، والمناكفة مع مستأجري أرض قليوب، والاستماع إلى هموم بطة في ميدان السيدة.

اليوم فقط، وبعد شهر من معرفة فرج ومرجانة وآلة العرض الميتة والمقاعد المهشمة، كان الرجل يخبرني بعودة الشبح، وكان صوت "ريكوردر" عالٍ يأتي من مكان بعيد، حاملًا أغنية أسمعها لأول مرة.

مغنٍّ يردد: "حكى.. شكى... بكى"، فيرد عليه الكورال مثل أسطوانة

متكررة: "حكى شكى بكى".

فشرعت ألعن في سري حرارة أغسطس وقذارة مُرجانة وحماقة بهجت الساعاتي.

-٢-

المتر موريس

أخذ يفحص الأوراق بعناية، ثم رتّبها بهدوء، وقال دون أن ينظر إليّ:

- خد وقتك وحدد قرارك.. ما ينفعش شوية عايز تبيع.. وشويتين مش عايز.. شوية هسافر بكرة.. وشوية هاقعد لما أشوف آخرتها.. لو عايز رأيي هاقولك.. بس إنت اللي لازم تحسمها.

عندما رفع المتر موريس رأسه بدا وجهه الأبيض، وشعره الفضي، كتلة من نور، من أثر انعكاس أباجورة المكتب الخشبي الضخم، صوته الحاد الحازم، يشبه صوت أبي، وبذلته الأنيقة، وهيئته، وطريقته الرزينة في الضغط على مخارج الحروف، جعلته أقرب إلى السفراء والدبلوماسيين.

شهرًا بأكمله أتواصل معه، أزوره في مكتبه الكائن في التوفيقية، ما زال المكان على حاله لم يتغير فيه شيء، الشقة واسعة وفسيحة، عالية السقف، ولكن الإضاءة شحيحة، باستثناء حجرة مكتبه، ثمة حجرات جانبية كثيرة، تتحرك فيها أشباح لمحامين من الشبان، يدخلون ويخرجون على الأستاذ، يسألون ويتركون أوراقًا، ورغم الضوء الذي يحيط بالمتر ومكتبه الخشبي، فإن الملفات المتربة تطل من الدواليب الزجاجية، وتذكرني دومًا بأن الرجل السبعيني النشيط، الذي يفضل البابيون على الكرافتة، والبايب على السيجارة، ويرتدي البيريه في الشتاء، ينتمي إلى زمن آخر، ولكنه ما زال حيًا، ومصرًا،

وقادرًا على المقاومة.

موريس قلدس جزء من الماضي، ومن العائلة، أبي الثاني، بل هو أبي الفعلي المباشر، لأن عمّار بهجت الساعاتي، وزوجته الصحفية المتمردة فتحية، كانا يهتمان أكثر بقضية الطبقة، وهموم الغلابة، وكانت الدولة تهتم باحتجازهم. عمّار لم يكن مستريحًا أيضًا، لأن ابنه الوحيد لا يرى الصراع الأهم في الحياة طبقيًا، ولكنه يراه في داخل الإنسان نفسه، ويبدو الابن (أنا) أقرب إلى جده كاره السياسة، وعدو التحليلات الاجتماعية والاقتصادية، هكذا سارت الأمور، شد وجذب ومحبة عميقة رغم كل شيء.

كان موريس رفيق كفاح عمار، ولكنه كان أكثر حيطةً وحذرًا، وأقل اندفاعًا، حائط الصد الأخير عن الرفاق المعتقلين، وراعي الأسر والعائلات المنكوبة، والرجل ذا الوجهين: أب حنون ومتفهم، وأب حازم وصارم عند اللزوم، لا تملك إلا أن تحبه، وما إن تفعل حتى تصبح أسير شخصيته، وأسير محبته، الحب هو سلطته الكبرى، ومن خلاله يدير حياة ابنه فادي، وابنته مريم، وابنه الثالث فؤاد.

انقطعت صلتي بالجميع بعد الهجرة، إلا المتر موريس، منه تابعت أخبار العائلة، وتقلبات الظروف والأحوال، خطاباته الورقية المكتوبة بخط الرقعة البديع، وبالحبر الأخضر دائمًا، يمكن أن تصنع كتابًا عن أحوال البلد.

لا أزعم أنني فهمت الكثير، ولا أعتقد أنه كان يكتب لي، بقدر ما كان يكتب سيرة زمنه، ولكنه كان صوت الوطن الغائب، الذي هربت منه لسنوات طويلة.

علاقته مع جدي ملتبسة، شعرت أحيانًا أنه يحتقره، وفي أوقات أخرى، كان يتحدث عنه بإعجاب، بوصفه رجلًا عاش حياته كما أراد.

"الناس مش زي بعض.. دول كائنات مختلفة وعجيبة.. مش نسخ من بعض.. كل واحد مهمته في الحياة يكون نفسه مش نفسك.. يكون هو مش إنت.. وبهجت الساعاتي كان نفسه بامتياز يا عزيزي".

هكذا قال لي المتر موريس في سيارته "الفولكس بيتل" الحمراء، وهو يحملني من المطار إلى فندق النيل هيلتون، احتضنني بحرارة وسط العائدين، ومنحنى شعورًا مفتقدًا بالدفء، ثم سرعان ما عادت إليه طبيعته العملية، فأسرع يعدو إلى السيارة بجسده النحيل، مفسحًا المكان في سيارته لثلاث شنط بالعدد، ومعزيًا لي في جدي، الذي عاش حياته كما أراد.

- سلامات يا فؤاد.. وحشتنا.. لولا جواباتك المختصرة كنت قلت إنك بقيت تاريخ.. مع أنك في الحقيقة الحاضر والمستقبل.. مستقبل عيلة الساعاتي.

كتمت ضحكة متمردة، وتأملت في صمتٍ طريق المطار الذي تغير إلى درجة عجيبة، وتأملت المتر نفسه بلمحات خاطفة، ما زال قويًا، رغم نحافته الزائدة، وظهره المحني، وما زالت خطواته سريعة، كان يرهقنا بهذه الخطوة، عندما نسير معه، أنا ومريم وفادي. صار جدًا منذ سنوات، ولكنه يبدو أكثر شبابًا وحيوية وشغفًا بالحياة مني، من أين يأتي هؤلاء الحالمون بهذه القوة؟ من أين يأتون أصلًا بوهم تغيير العالم والتاريخ؟ العالم تغير فعلًا يا متر، ولكن في الاتجاه العكسي، انهارت الشيوعية، وانهار سور برلين.

- كل الأوراق هتكون جاهزة.. جدك كان مرتب ومنظم كل حاجة.. محتفظ بكل حاجة... متهيألي مات في سلام.. رغم إنه عاش أيام سودا وصعبة بعد اللي حصل لأبوك وأمك.. طبيعي جدًا يعني.. قفل السينما.. وبطل ينزل القاهرة.. اعتكف في بيت قليوب.. بس أتصور إن إرادة الحياة عنده كانت أقوى من إرادة الموت.. وإلا كان عمل في نفسه حاجة.

"يتصور" المتر، ويظن ويعتقد، يختار دومًا ألفاظه بدقة، لديه قلب يقظ، وعقل أكثر يقظة، في المرات التالية للقاءات المكتب، كنت أشاهد عادةً من يقصده في رفع قضية، أو المطالبة بحق، أو لدفع ظلم أو قهر، أو حضور تحقيقات، أو حتى في تيسير زيارة معتقل أو سجين أو محتجز، كانوا جميعًا فقراء وبسطاء الهيئة والحالة، ولم يكن يأخذ منهم مليمًا واحدًا، شرطه الوحيد أن يعرف التفاصيل، ويتأكد من عدالة القضية، هنا يقبل فورًا أن يتدخل، بل ويسعد صادقًا بذلك، لا شيء سوى مصاريف إدارية بسيطة، أتصور أنا أيضًا أنه نضال موازٍ يعادل نضال الرفاق المعتقلين، وربما كان نضالًا أكثر تأثيرًا وأهمية.

خطر لي وأنا أتأمله وهو يقود الفولكس بهدوء ورزانة، أن هناك أشياء مشتركة تجمعه بجدي، فكرة الاختيار وتحمُّل مسؤوليته، بصرف النظر عن مضمون هذا الاختيار، الاثنان من أصول ثرية ومستغنية، جدي أعجبه أن يظل ابن طبقته، والمتر رفض ذلك، وانحاز للغلابة، ولكنهما اختارا، ودافعا عن ذلك، وكان يمكنهما أن يدخلا في مناظرة قوية دفاعًا عن موقفيهما، جدي فنان، أو يريد أن يكون فنانًا، والمتر فنان في مواجهة الظلم، واستعادة الحقوق

الضائعة، والاثنان يعشقان الحياة، فيهما بساطة حقيقية، لا يرتديان أقنعة، تعنيهما المصالحة مع الذات، وليس إرضاء الآخرين.

قال المتر فجأة، وقد صنعت كلاكسات الطريق نشازًا هائلًا ومزعجًا:

- فيه بنوتة لطيفة ظهرت من فترة قصيرة بتغني بشكل خاص.. ليها أغنية بتقول فيها: "لا يا مصري لا.. لا وألف لا.. بلدك بيك أولى".. أو حاجة زي كدة... وعندنا شاب سمارت كدة بيغني: "ولا تسوى دموع.. وسفر ورجوع.. ولا تحلى الدنيا إلا بناسها".. جميلة السذاجة دي.. سنتيمنتال يا عزيزي.. كلنا عمومًا عاطفيين.. بس إنت اللي هتقرر تقعد ولا تمشي.. هتسمع الكلمة دي مني كتير.. ما ينفعش حد يقررلك...

لم أكن فكرت أصلًا في شيء كهذا، ولا كان نشاز الكلاكسات خلفية مناسبة لكلام المتر، كل ما كان يعنيني في ساعات وصولي الأولى أن أستريح وأنام، وأن أتعامل مع بقايا ميراث وذكريات، لا أفهم معنى مستقبل عائلة الساعاتي، ولا خطورة أي قرار، لو عاش جدي أطول، لما كنت هنا من الأساس، مجرد ظرف وحالة، لا يستحق الأمر هذه الفلسفة.

الأغنيات التي ذكرها المتر بدت حقًّا مضحكة، وعندما سمعتها فيما بعد كانت عنوانًا على الغرابة، مغنية "لا وألف لا" جميلة، ولكنها تنطق الكلمات بطريقة "خواجاتي"، ومطرب "ولا تسوى دموع" يغني على لحن راقص، لا يخاطب العاطفة، ولكنه يستدعي الرقص، تخيلته يطارد رجلًا هاربًا إلى المطار، يُسمعه أغنيته، فينفعل الهارب، ويحزم

وسطه، ويبدأ الرقص، فيعودان معًا إلى بيت الرجل، حاجة في منتهى الأنس.

عادت اللهجة الحازمة إلى المتر، فقال وكأنه يلقي محاضرة:

- الحقيقة الموقف مش مُبشِّر خالص.. تقديري أننا داخلين على أيام صعبة.. من سنتين جماعة مسلحة قتلت رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب.. بيقولوا قتلوه غلط.. الكارثة إنهم قتلوا كمان فرج فودة.. بعد مناظرة السنة دي في معرض الكتاب.. ما عنديش معلومات عن الإرهاب وحجمه.. بس لما يكون تمن إنسان رصاصة يبقى وصلنا لنقطة اللاعودة.. عدنا من حرب الخليج لحرب جوة البلد.

- يا متر العالم كله مقلوب.. الحرب في أوروبا.. الصرب والبوسنة والهرسك.. وناس أول مرة نسمع أساميها.. إحنا ما صدقنا حفظنا الخريطة اللي بعد الحرب العالمية التانية...

- معاك حق.. بس برضو البلد دي وضع خاص.. التاريخ بيقول كده.

قاطعته حتى لا يسترسل، وحتى لا أدخل في متاهة تصورات وقراءات جديدة، لا علاقة لها بموت بهجت الساعاتي، الذي انتهى عمره المكتوب:

- تمام.. تمام.

لن يتوقف بمجرد المقاطعة، لا بد أن أفتح له موضوعًا يحبه:

- وحشني فادي.. وحشتني مريم.

- بخير.. مبسوطين في مكانهم.. فادي في أم المصريين.. ومريم في روزا.. مش ناوية تتجوز.. جريئة وما بتبطلش مناقشات.. والأحفاد ولاد فادي واخدين كتير مني.. هاديين.. ربنا يكون في عونهم كلهم.

يحمل "المتر" لقب "القديس"، ليس لأنه متدين، فقد كان يذهب إلى الكنيسة فقط لمرافقة زوجته الراحلة طنط تريزا، ولكنه حصل على لقب "القديس" بسبب تكريس حياته ومهنته للدفاع عن المظلومين، إلا أنه ليس زاهدًا، وليس راهبًا؛ يحب الطعام الفاخر، والملابس الغالية، ولديه مغامرات عاطفية، قبل وبعد زواجه بطنط تريزا، لا يذهب إلى بارات وسط البلد، ولكنه يفضل بارات الفنادق، وينتقي أفضل أنواع النبيذ والويسكي، يتناول ما تيسر بعد العشاء في بيته، لا شيء يتسق مع الدفاع عن الحياة، سوى أن تحب الحياة، وقد كان يفعل ذلك بمنتهى الإخلاص.

لا مفر من الاعتراف بإعجابي به، لم أستطع أن أكون بهذه القوة، ولا بهذا النشاط، رغم أنني ما زلت شابًا، ولم أفلح في أن أكون ملتزمًا وحرًا في نفس الوقت، ولا أظن أنني أعرف ما أريد، رغم نجاح مهني مشهود، ورغم العمل في مكتب هندسي شهير، يبني أعظم المشروعات، ورغم شهادات تقدير حصرية للمهندس النابغ.

لا أسرة، لا زوجة، ولا رغبة في أن يكون لي أبناء، ولا حتى قصة حب عظيمة، ولا أفهم المرأة من الأساس، لا شِعر ولا شغف، ولا سجن ولا معتقل، فقط هناك أحلام ساذجة، مع زملاء الجامعة، أين هم الآن؟ أغلب الظن أنهم تركوا البلد، أو أنهم يجلسون على المقاهي،

يستمعون إلى أغنية: "ولا تسوى دموع"، ويفكرون في الهجرة.

بعد اللقاء الأول، ساعدني المتر موريس في اكتشاف أرض قليوب، وذهبنا إلى البيت الريفي، الذي أمضى فيه جدي سنواته الأخيرة، وكان المتر سبب حماسي للانتقال من الفندق إلى شقة السيدة زينب، ذهب معي إلى الشقة، وأشرف بنفسه على متابعة العمال، وهم ينظفونها ويوضبونها، أقنعني بأن ترك المكان مغلقًا يغري بأطماع ومشكلات لا حصر لها، والشقة كذلك جزء من حياة الساعاتي في القاهرة، وهي أفضل في كل الأحوال من حياة الفنادق.

شقة شبرا التي وُلدت وتربيت فيها، باعها جدي بعد مأساة أبي وأمي، لم يحتمل أن يذهب إليها، أو أن يدعو إليها أصدقاء الشعر، الذين يسكنون في منازل قريبة.

لم يذكر المتر شقة شبرا لا بالخير ولا بالشر، ولا حتى بالاهتمام، يحذف المتر فورًا كل ما ليس له لزوم، ويذهب مباشرة إلى النقطة المهمة، ولذلك أدهشني ألا يفتح سيرة سينما مُرجانة، الجزء العجيب من الميراث، فلما سألته تليفونيًا عن السينما، قال بصوت لم أتبين ملامحه إن هذه الزيارة متروكة لي، ويجب أن أقوم بها بنفسي، وإن عم فرج، حارس السينما يقيم فيها، وعنده فكرة عني، والأمر لا يستدعي وجود المتر، لأن المكان لا يعمل منذ سنوات، ويبعث عمومًا على الضجر والكآبة والملل، لا شيء يغري بالاهتمام، في رأيه، إلا موقع السينما الخطير، بالقرب من كوبري عباس التاريخي، الذي شهد ثورة تحالف الطلبة والعمال، في موقعة مشهودة لا تُنسى من العام ١٩٤٦.

قبل أن يستطرد المتر موريس في سرد وقائع ثورة الطلبة، كنت أؤكد له أنني سأزور السينما بمفردي، عندي فضول ليس أكثر، لكي أعرف لماذا يشتري جدي سينما ويديرها؟ ولماذا يسكن في السيدة بينما كان يمكنه أن يسكن في الزمالك أو مصر الجديدة؟

كعادته عند إنهاء الحديث، قال المتر إن البشر فيما يعشقون مذاهب، مؤكدًا أن جدي كان "بيعمل اللي على مزاجه.. مش اللي على مزاجنا".

بعد أيام، اتصل بي المتر. اقترح أن نلتقي بعيدًا عن المكتب، في وسط البلد مثلًا، عنده ندوة في حزب التجمع، يدعوني أن أحضرها، ثم ننطلق إلى مقهى.

رفضت دعوة الندوة بلباقة، قلت إنني سأمر من جديد على سينما مُرجانة، لأن المكان أعجبني، ولأن عم فرج شخصية مسلية على وجه العموم، وبعد لقاء فرج، يمكن أن ألتقي المتر في مقهى يختاره، فوصف لي مقهى اسمه "أندلسية".

في الموعد، حضر المتر بكامل أناقته ونشاطه، لم يدهشني أن الكثيرين يعرفونه، رغم أنهم من أجيال مختلفة، ولكن كان أكثرهم ترحيبًا به، المخرج السينمائي المعروف جمال هلال، الذي التف حول مائدته مجموعة من الشباب.

جلسوا يتناقشون بصوت عالٍ، تناثرت من الحديث عبارات عن محاولة إسرائيل التي لا تتوقف من أجل التطبيع الثقافي والفني، وكان صوت المخرج يعلو فوق أصواتهم. اشتهر بأنه يمتلك حماس شاب، رغم أنه تجاوز الخمس والخمسين في تقديري.

بدأ المتر حديثه بعبارات عاطفية، فذكرني بأنني مثل فادي ومريم، وبأن ابتعاده عني لأيام لا يعني عدم الاهتمام، ولكن ليمنحني فرصة للتفكير وللاكتشاف. أخذ رشفة من فنجان القهوة المضبوطة، ثم أضاف:

- أنا جنبك دايمًا.. بس مش عايز أفرض فكرة أو وجهة نظر.. اعتبرني مستشار.. حاضر وجاهز ويقول رأيه.. بس بناءً على طلبك.

فتح كيس التبغ، وبدأ بتلقيم البايب الأسود النحيف، ثم أشعل عود الكبريت، وبدأ بإخراج الدخان، لم أقل له إنه يذكرني بشخص يكرهه، ولكني رددت على كلامه الودود بعبارات محبة صادقة.

قلت إنه أبي الثاني، وإنني ممتن لاهتمامه ولوجوده في حياتي، وتحدثت عن أبي، وحبه واحترامه للمتر، وأضفت بأنه أكثر من مستشار، إنه "شريك رأي"، وهو أمر يجعلني سعيدًا وفخورًا.

لا أعرف من أين جئت بمصطلح "شريك رأي"، ولا أظن أن المصطلح أعجب المتر، وربما وجدها عبارة ساذجة وتافهة، هكذا قرأت تعبير وجهه، أو ربما توهمت ذلك، ولكني كنت فعلًا سعيدًا بمساندته وبوجوده، سأطلب رأيه بالتأكيد، ليس فقط لأنه خبير بالحياة وبالقانون، ولكن لأنني ببساطة دون أصدقاء حقيقيين، سواء في القاهرة أو في دبي، كل من أعرفه حتى الآن عم فرج، وبطة، ولا أعرف بالضبط ما الذي يمكن أن تمنحني إياه هذه المعرفة العشوائية الغريبة من آراء أو أفكار.

- طيب.. شايف إيه يعني؟

لم أكن مستعدًا لرأي أو لموقف، كل ما عندي مجرد انطباعات مشوشة، لذلك قلت دون تفكير:

- ماليش علاقة بالأرض والزراعة، ولا صبر على مناهدة مستأجر، وشقة السيدة مريحة وظريفة.. والسينما عجيبة جدًا.. وعم فرج أعجب وأغرب.. ده عمل دكان بدل شباك التذاكر.

وأضفت بعد تردد:

- ... وبيقولي إن فيه شبح بيصرّخ يوماتي قبل الفجر.. وإن واحد اتقتل زمان.. تقريبًا راجل مختل.

أردفت وصف اضطراب عم فرج بضحكة ساخرة، ولكن تعبير وجه المتر كان جادًا للغاية، بل إنه اعتدل في جلسته، وقال باهتمام:

- اتكلم تاني عن الشبح؟ هنشوف.

استعجبت من رد الفعل، تجاوزت تعليق المتر، كأنني لم أسمع شيئًا، وأكملت احتساء كوب الشاي بالنعناع حتى الثمالة.

كنت مضطربًا، وغير مستريح، رغم جمال المقهى، وطابع الأرابيسك الفخم، الذي يميزه، وأردت أن أخدش اهتمام المتر بكلام عم فرج، فقلت:

- الأهم من العفاريت والكلام ده إننا نضفنا المكان.. السينما على فكرة ممكن ترجع تشتغل.. وممكن تتحول إلى سينما شتوي.. لكن أنا برضو مش مهتم بالسينما.. ولا عندي خبرة في الحاجة دي.

قام المتر فجأة، دون أن يعلّق، اقترح أن نتمشى قليلًا في شارع

طلعت حرب، وافقت على الفور، برشاقة وخفة دفع الحساب، وذهب لتحية ندوة جمال هلال، ومصافحته بحفاوة، جاءني صوت المخرج وهو يتحدث عن سيناريو فيلم جديد سيحرّك المياه الراكدة، وصوت المتر وهو يتمني له التوفيق، ويعده بمساندة يستحقها.

فكرت ونحن نسير جنبًا إلى جنب على الأرصفة المتكسرة، في أنني لم أفعل ذلك قط مع أبي، أو مع أمي، لم نمارس المشي والثرثرة، كل مناقشاتنا وحواراتنا كانت في البيت، وفكرت في أن الرصيف وشكله وحركة المشاة، ليست مجرد شكليات، إنها عناوين لطبيعة العلاقات الاجتماعية، ولنوعية البشر، ولألوان الشوارع، ولمساحات القبول أو الرفض، ولمدى الاهتمام بالصيانة: صيانة المساحة الخاصة، وصيانة المدينة العجوز.

ثرثرت بهذا المعنى، الذي سمعت مضمونه من زميل في دبي، فوافقني المتر على ذلك، واستطرد في الحديث عن هيئة الناس، ومدى اهتمامهم بملابسهم، وطريقة مشيتهم، وعلاقتهم بفاترينات المحلات، وتصنيف الأعمار التي تختار الوقوف أمام فاترينات بعينها، ومدى التزامهم بالنظام، أو تفضيلهم للعشوائية في الحركة على الرصيف، ثم أنهى تأملاته بجملة قاطعة:

- تكسير الرصيف يا فؤاد مش مجرد إهمال.. ده دليل فوضى.. والناس اللي بترمي زبالة من العربيات بتفش غل وغيظ.. محتاجين دراسات ودراسات.

لاحظت كثرة عدد البائعين الذين يروجون للعب الأطفال، يهتفون "حمادة بيلعب أهه"، ويديرون عروسة بالزمبلك تمثل طفلًا عاريًا

في هيئة سباح، يلقونه في مياه بوعاء من البلاستيك، فيعوم محركًا ذراعيه ورجليه، حتى يتوقف.

شاهدت بائعين آخرين، يروجون لبيع سلاحف صغيرة الحجم، مختفية الرؤوس، علّق المتر على تجارة الأرصفة الغريبة، بأن "أكل العيش يحب الخفية واللعب كمان"، ولكنه اعتبر ظهور السلاحف الصغيرة، وبيعها على الأرصفة، أمرًا غريبًا ومدهشًا، وإن كان التفاؤل بهذا الكائن الغريب، أمرًا قديمًا، أمي كانت تحدثني عن سلحفاة تجلب الحظ في بيتهم بالظاهر، وكان من ألغازها فزورة تقول:

"حجر حجنجر حجارة لأ

تبيض وتفقس دجاجة لأ

أربع أرجل حمارة لأ".

وكان حل الفزورة "السلحفاة".

في ميدان طلعت حرب، تبادلنا الابتسام، ونحن نشاهد رجلًا ملتحيًا بجلباب أبيض، يدعو من خلال ميكروفون، التبرع لبناء مسجد، ويحمل في اليد الأخرى ما يشبه الإيصالات أو التذاكر، لم نجد ما يستحق التعليق، فالحكاية قديمة، ولكنها تشهد على ما يبدو تنشيطًا جديدًا.

أمام مكتبة مدبولي، اشترى المتر كل الجرائد تقريبًا، وكان مستعدًا بأن يقتني ما أريد من صحف، ولكني لم أتحمس لقراءة أي شيء، عندي التلفزيون في الشقة، وراديو عتيق متعدد الموجات، وهما يكفيان وزيادة.

كنا قد اقتربنا من مكان سيارته الفولكس، في شارع هدى شعراوي، عندما فاجأني المتر بسؤال لا علاقة له بالتأملات:

- مش عايز تشوف شلة زمان؟

لم أفكر أن أرى أحدًا، وكل ما يحدث لي منذ وصولي له علاقة بالأماكن والأرض والعقارات، ولم أتوقع أن يهتم المتر بأصدقائي، رغم أنه يعرفهم، لأنهم أيضًا أصدقاء فادي ومريم، ولأنه بابا الجميع.

مددت يدي للأمام وكأنني أقول "الأمر سواء"، فقال المتر:

- عمومًا كلهم موجودين.. تليفونك إديته لفادي ومريم.. تقدروا تتقابلوا وترتبوا لقاء.. لو حبيت يعني.

هل قرأ وحدتي وتشوُّش أفكاري وغربتي؟ أنا كل ذلك وأكثر، أنا جريح بلا شفاء، عالق بين الوطن والوطن البديل، وريث ذكريات قاسية ومؤلمة، لا أستطيع العوم مثل حمادة، وأخفي رأسي مثل سلاحف الرصيف.

- طبعًا ما فيش مشكلة.. نتقابل.. عندي فضول برضو.

استغربت كلمة "الفضول" التي استخدمتها أكثر مما ينبغي، هذه كلمة عشوائية تليق بسائح أجنبي، ولكنها الكلمة الوحيدة المناسبة، بدلًا من الاعتراف بعدم القدرة على الفعل، الفضول أرحم من العجز، على الأقل من يدفعه الفضول سيتحرك ويبحث وينزل إلى وسط البلد، بينما كنت في حالة خمول وكسل، لولا المتر لما سافرت إلى قليوب، ولا فتحت شقة السيدة، ولا زرت سينما العفاريت.

لم يترك المتر المناسبة قبل أن يغادر دون تعليق أخير:

- كلهم موجودين.. ما حدش سافر غيرك.. كلهم هنا.. حتى همس.

صدمني الاسم مثل دش صاقع في عز البرد، ولكني تماسكت، صافحت المتر، مع أنني كنت لحظتها على وشك السقوط.

مرت أيام كثيرة، حتى زرت المتر في مكتبه، فقال من جديد، دون أن ينظر إليّ:

- خد وقتك وحدد قرارك.. ما ينفعش شوية عايز تبيع.. وشويتين مش عايز.. شوية هاسافر بكرة.. وشوية هاقعد لما أشوف آخرتها.. لو عايز رأيي هاقولك.. بس إنت اللي لا زم تحسمها.

قلت له بسرعة:

- هاقعد خلاص.. وهاكمل الرحلة.. ما استغناش عن رأيك ومشورتك طبعًا.. حصلت حاجات مهمة في الأيام اللي فاتت.

أخذت نفسًا عميقًا، وبدأت بسرد ما حدث لي في شقة السيدة، بينما كان المتر موريس يشعل البايب من جديد، وتبرق عيناه من وراء عدستيه السميكتين، اللتين صارتا ضبابيتين بفعل الدخان.

-٣-

بهجت

عندما فتحت النسخة المتربة من كتاب رجوع الشيخ إلى صباه، في كرتونة مهملة، أسفل سرير جدي، في شقة السيدة زينب، لم أكن أتوقع أن أجد في داخلها صورة بهجت الشاب، وأوراقًا كتبها تبعث أسرار حكايته القديمة، وتجعلني أقرر البقاء، لاكتشاف المزيد عن أسرتنا البائدة.

أحببت دومًا ميدان السيدة، حضرت مرة طقوس المولد الصاخبة، جئت بصحبة الشلة، وأخذتنا رحلات مشي واكتشاف أكثر من مرة إلى الشوارع المحيطة بالميدان، بالذات من شارع قدري إلى القلعة، ودرب اللبانة، ومن الميدان إلى الحسين، لنعرف مسار رحلة الغرام الشهيرة في أغنية عبد المطلب، ومن السيدة إلى الحلمية وباب الخلق، لا بد أن جدي وجد نفسه أخيرًا في هذا المكان.

ولكن شقته في شارع قدري بدت كئيبة، مظلمة وباردة، انقبض قلبي منذ أن اهتز بنا (المتر موريس وأنا) الأسانسير الخشبي فأمسكت بالجدران، شاهدت نفسي في المرآة على وشك السقوط، صعدنا وسط ضحكات المتر الشحيحة، وأكملنا الصعود لعدة سلالم إضافية، حيث شقة جدي في الطابق الخامس.

لعدة أيام، أرجعت عدم سعادتي بالشقة إلى وحدتي، وإلى مزاج عام يظلل حياتي، وإلى حيرة تطاردني، وتشل قدرتي على الفعل، وأرجعته أيضًا إلى أنني رأيت الشقة في حالة بائسة، عندما فتحها

المتر بنفسه، قبل أن نتركها لعمال التنظيف الذين أحضرهم.

لم يفلح فتح الشبابيك الخشبية العملاقة، التي جلبت لصالة الاستقبال ضوءًا غامرًا في تغيير الصورة البائسة للمكان، بل إن الشمس منحتها منظرًا رماديًا يشبه هيئة المقابر في الصباح الباكر.

أدهشتني بساطة الأثاث، وفقره، وتواضع ذوقه: طقم أسيوطي، ومائدة خشبية صغيرة للغاية، وُضع عليها مفرش لاسيه أخضر، ومائدة أخرى أكبر قليلًا، وُضع عليها تلفزيون أبيض وأسود، والجدران خالية إلا من لوحة كانفاة، تجسد منظرًا ريفيًا لفلاحة وجمل وترعة، تشبه لوحات بيكار، ولعلهم سرقوها منه.

إلى اليمين كانت حجرة المكتب، وفيها مكتب خشبي عملاق، خلفه مقعد جلدي كبير، وكنبة ومقعدان من الجلد، وعلى الجدار خلف المكتب صور لفنانين يحبهم جدي: أنور وجدي وعبد الحليم حافظ وسامية جمال ببدلة الرقص، وفي الحائط المقابل، مكتبة مليئة بالكتب، المصفوفة خلف زجاج مترب.

قادتنا ردهة ضيقة إلى حجرة النوم والمطبخ والحمام، في الحجرة سرير منخفض، بجواره كومود خشبي فوقه بعض زجاجات الأدوية، وراديو صغير بعطاء جلدي بني اللون، وعدة تليفون سوداء، وعلى الأرض سجادة يدوية بألوان مبهجة، حمراء وصفراء وخضراء، تجسد أشكالًا من النخيل والبلح.

عندما فتح المتر شيش الحجرة، شاهدنا مئذنة جامع قريبة، بينما ظهر من بعيد ميدان السيدة.

كل شيء عادي وبسيط، وكأنها شقة عبور، وليست شقة استقرار، يضاف إلى ذلك سكون مزعج، بدت الشقة نفسها كملحق بالبيت، تم بناؤه في مرحلة لاحقة، فلم يصله الأسانسير الخشبي، مكان منعزل، رغم أنه قريب من صخب الميدان.

قال المتر إن الشقة تمليك، والجد الذي اعتكف في قليوب لم ينس الشقة ولا السينما، رغم غيابه عنهما لسنوات قبل وفاته. فواتير الكهرباء والمياه تُسدد في موعدها بالضبط، وفواتير اشتراك التليفون أيضًا، وكأنه ينتظر يومًا يعود فيه إلى الشقة، وإلى مُرجانة.

يومًا بعد يوم، تعودتُ الشقة، واستعدت ذكريات جميلة من معالم المنطقة: سوبيا توتو والرحماني، كنفاني عرفة، سويقة شارع السد، شحاذو ودروايش أم هاشم، مقاهي شارع خيرت، سينما الشرق، ميدان عابدين، شارع مجلس الأمة، كنت من جديد في وسط البلد، يمكنني أن أصل مشيًا إلى أي مكان، المنيرة، جاردن سيتي، التحرير، لم أعد أستخدم التاكسي إلا في مشاوير الصباح والظهيرة الحارة.

لكني لم أتكيف تمامًا مع الشقة، ولم أدخل حجرة المكتب مرة ثانية، وأصابتني كوابيس أزعجت نومي في حجرة جدي، لم أستخدم المطبخ حتى لإعداد كوب شاي أو قهوة، جلسة المقاهي أفضل وأكثر بهجة.

البلكونة هي مكان إقامتي الدائمة، صوت الميكروفون، ورفع الأذان يزلزل الشقة، وبعد العشاء تسود سكينة مريحة، تبدو أضواء الميدان وراء المئذنة، مثل لوحة ضبابية غائمة، وقرب الفجر، تعبق رائحة الحشيش، القادمة من الأسطح المجاورة، فتكتمل الحالة

الغريبة، وتأخذني إلى عالم فريد، يهدأ قلبي المتعب، ويتوقف عقلي المؤرق عن التفكير، أعود طفلًا خالي البال والفؤاد، وأراني أطل على بلكونتنا في شبرا، أشب بقدمي، تمسك أمي بقميصي حتى لا أسقط، ترقب سعادتي وأنا أصفق للرجل العاري، النائم فوق المسامير، ولزوجته التي تبخ الغاز في الهواء، فيصبح نارًا، تعطيني أمي قرشًا، أضعه في السّبت، وننزّله معًا إلى عمو الفنان الساحر، كما كانت تسميه، يأتي أبي مهللًا من الداخل، يصفق مع تصفيق أطفال الشارع، ويحملني بنفسه لأرى حلقة الساحر، بعد أن تفرقت، يضحك كثيرًا عندما أسأله بصوتي الرفيع:

- يعني دي مسامير بجد؟

يهز رأسه بالإيجاب، ثم يتجهم فجأة، يقول بعد أن يأخذ نفسًا عميقًا، وينفخه في الهواء:

- أمّال.. مسامير بجد.. بس اتعود عليها.. اتعود على الألم.. فما عادش فارق معاه.

تقول أمي فتحية:

- ممكن كل حاجة تكون مؤلمة.. بس إنت أقوى بكتير.. عايزة بس صبر.

صوتها ما زال في أذني، فيه مرارة وحزن، ولكني لم أتمنّ قط أن أكون مثل عمو الساحر، يعجبني وأصفق له، ولكن هذا الألم لا يقدر عليه كل الناس، يجب أن أتجنبه، حتى لو كان سببًا في التصفيق، وفي أكل العيش.

لا أريد أن أكون بطلًا أمام نفسي، ولا أمام حلقة الأطفال، ولا أمام الناظرين المصفقين من البلكونات المفتوحة.

كانت أيامي في شقة جدي بالسيدة مقبولة عمومًا، لم تكدرها سوى حادثة أحزنتني يوم تناولت الفطير عند محل صغير، تذوقته مرة، فصرت أبتاع منه فطيرة بالسكر، وأخرى بالبسبوسة يوميًا.

ذلك اليوم، رأيت شابًا أجنبيًا أشقر الشعر يقول للبائع بالإنجليزية:

- ليس هذا سعر الفطيرة.. أنت تبيعها بسعر مضاعف لأنني أجنبي!

وقف صاحب المحل كالأبله، يفهم أن الرجل غاضب، ولكنه لا يعرف بالضبط سبب الغضب.

لم أكن قد طلبت الفطيرتين بعد، وانتابني الخجل والحزن، وكأن الشاب الأجنبي يتهمني شخصيًا بالضحك عليه، قررت في لحظتها ألا أشتري الفطيرتين، وأن أكدر صاحب المحل، الذي لن أراه أبدًا بعد ذلك.

قلت مترجمًا كلمات الشاب بتصرف، دون أن يطلب مني أحد ذلك:

- بيقولك إنت حرامي.. بتضحك عليه في السعر لإنه خواجة.

توقعت أن يثور صاحب المحل، وأن يطارد الشاب الخواجة بعد أن غادر، ولكن لدهشتي الكبيرة، رأيت الرجل وقد تحول لون وجهه إلى الأحمر، حملق في ذهول، ثم نظر إلى الأرض، بدا ساهمًا وشاعرًا مثلي بالخجل، لم يهتم بمغادرتي على الإطلاق، كان كمن تلقى صفعة، لا يستطيع أبدًا أن يردها. كان مقتنعًا أنه يستحق الصفعة.

في اليوم التالي رأيت ماسحة أحذية صغيرة، تجلس بالقرب من مصنع الرشيدي للحلاوة الطحينية. جذبني منظرها، جالسة في عز الشمس، لا تتحرك إلا عندما يضع زبون حذاءه فوق صندوقها الخشبي المكسور، هنا فقط تنتبه، دون أن تنظر إلى وجه الزبون، فتشرع في تلميع الحذاء بطريقة آلية.

تظهر الطفلة بعد الساعة الثانية عشرة ظهرًا، أراها في مكانها حتى الساعة الحادية عشرة مساءً، قد تذهب لشراء علبة كشري، من محل قريب، ورأيتها مرة تلتهم قطعة دندرمة، تلحسها في تلذذ، ولكنها كانت عادةً جالسة متربعة بنفس هيئة الكاتب المصري، ساهمة أو غائبة أو غافلة، محملقة في فراغ الميدان، لا تتلفت يمينًا أو شمالًا، في انتظار حذاء الزبون.

عندما اقتربت منها ذلك المساء، بدت تفاصيلها أكثر واقعية وحضورًا: حجاب أبيض، جلباب أحمر بنقاط سوداء، وأسفله بنطلون أسود، حافية وبجوارها شبشب زنوبة، وخلفها حجر كبير، عرفت فيما بعد أنه علامة مكانها الدائم، معلما تضع علامة لحجز مكان سيارتك الخاصة.

لم تنظر إليّ، ولم أتبين وجهها، بدأت التلميع على الفور، عندما مدت يدها لتأخذ النقود، نظرت نظرة خاطفة، فبدت مثل فأر مذعور، بعينيها الضيقتين، وبوجهها الشاحب، وبظلال رمادية تتشكل أسفل عينيها.

قررت أن تتولى الصبية تلميع الحذاء، والعناية به، وتكفل جو البلد المترب بإعادتي إليها كل يومين تقريبًا، وبدلًا من هيئتها الجادة،

ونظرتها إلى الحذاء، صارت تستقبلني بنظرة طفولية ساذجة، وفي مرة جديدة، بدأت تشرح ما تفعله، من باب الاهتمام بحذائي على وجه الخصوص...

- دي مش مَيّة.. دي صبغة جايباها والله.. ما تخافش على الجزمة الغالية.

ابتسمت لملاحظتها، التي لم تخطر على بالي، فلم أكن مهتمًا بالحذاء، ولكني ظللت أتساءل عمن يشغّل طفلة صغيرة ماسحةً أحذية.

ذات يوم سألتها، فقالت إن اسمها بطة، وإنها في الثانية عشرة من العمر، بينما تبدو في الثامنة على أكثر تقدير، والدها ماسح أحذية علّمها المهنة، ويعمل أيضًا سايس الجراج في شارع مجاور، يأتيان معًا في الصباح من القلعة، يذهب هو إلى الجراج، ويعود ليأخذها آخر الليل.

صارت بطة جزءًا من عالمي المحدود في السيدة، شعرت بأنها مثل ابنة لم أنجبها، ولكني كنت مندهشًا من قوتها، ومن البساطة التي تأخذ بها حياتها الشاقة، كانت مدركة أن الحياة متعبة، ولا مجال للشكوى، وكانت تحب والدها، رغم أنه تزوج على أمها، ولديه أورطة عيال غيرها، ورغم أنها تركت المدرسة، فإنها تعلمت صنعة، وتستطيع أن تعتمد على نفسها. تحب القلعة، وتزور أم هاشم، وتطلب منها الستر والصحة، وتعتبر جلوسها بالقرب من الطاهرة نعمة كبيرة، لا تريد أبدًا أن تزول.

أقول لها إنها نبيهة وكان يمكن أن تكون تلميذة ممتازة، فتبتسم

في سعادة، وتكلمني عن قدرتها على القراءة، وحساب بعض الأرقام، ولكنها تعترف بأنها كانت تلميذة مشاكسة، ترد الضربات والصفعات، تشتبك مع الطلاب والطالبات، ومع المدرسين والمدرسات.

- ما كنتش باسكت.. أصلها مش ناقصة ولاد الكلب كمان!

بدأت أشعر بحزن جارف، كلما غادرتها، فكرت أكثر من مرة ألا أعود لتلميع حذائي، ونفذت القرار بالفعل، ولكني شعرت بالذنب بعد أيام، فقد كنت تقريبًا الزبون الدائم الوحيد عندها، وبقية الزبائن من زائري الميدان العابرين.

بعد عودتي، كانت ابتسامتها الساذجة تستقبلني، بدأت بتلميع الحذاء بنشاط، وقالت في هدوء:

- افتكرت إنك تعبان.. بس الحمد لله إنت بخير.. مش كدة؟

قلت بعد تنهيدة، تشبه تنهيدة أبي في البلكونة:

- أنا بخير يا بطة.. بخير.

- كنت عايزة أسألك.. إيه ممكن يضيّع سواد الضوافر دي؟

رفعت أصابعها الصغيرة في وجهي، فقلت:

- والله ما انا عارف.. بس أكيد الراجل بتاع الصيدلية اللي هناك دي يعرف.. ما تقلقيش.. كله بيطلع في الغسيل.

حاولت أن أبتسم فلم أستطع، ولكن بطة ظلت تؤرقني طوال الفترة الأولى من إقامتي في شقة السيدة، حتى تراجع اهتمامي بها، بظهور صورة وورقة جدي بين أوراق كتاب رجوع الشيخ إلى صباه.

كانت كرتونة كبيرة قد لفتت نظري في أثناء تنظيف الشقة، أخرجوها من أسفل السرير، ونفّضوها، ثم ركنوها في جانب الحجرة، وقررت إعادتها من جديد إلى مكانها، لا طاقة لي بفرز أي شيء، وقد أتخلص من الكتب مع الشقة، إذا قررت بيعها.

تمددت فوق السرير، متأملًا مروحة السقف وهي تدور، ومتأملًا شيش البلكونة الموارب حينًا آخر، دفعني الملل إلى إخراج الكرتونة من تحت السرير، سحبتها، وبدأت بإخراج الكتب القديمة، وبعض الجرائد الصفراء المهترئة، فاستوقفني كتاب رجوع الشيخ إلى صباه. أسمع عنه، وأعرف أنه كان مرجع الأجيال القديمة في اكتشاف الجنس، مثل الأفلام الثقافية ومجلات البورنو في جيلنا، لم نعد في حاجة إلى الشيخ وصباه، الذي يصف ما نراه حيًا بالتفصيل.

فتحت الكتاب، وقلّبت صفحاته، فسقطت صورة لجدي بالأبيض والأسود، يظهر فيها شابًا، وقد فرق شعر رأسه من المنتصف، مرتديًا بدلة أنيقة سوداء، وكرافتة رمادية، ينظر بعينين واسعتين إلى عين الكاميرا، وتنحرف زاوية شفته السفلى، فيبدو وكأنه على وشك السخرية من شيء أو شخص، يكاد أبي يكون نسخة منه، وخلف الصورة كتبوا تاريخها ٢٢ سبتمبر ١٩٢٢، صورته وهو في الثانية والعشرين من عمره.

عندما أعدت الصورة إلى مكانها، وقلّبت الصفحات من جديد، وجدت ورقة مُسطّرة مطوية، لا أعرف لماذا ترددت في فتحها؟ ولكني فعلت في النهاية.

أعلى الصفحة كتب جدي تاريخًا جديدًا: ٢١ مارس ١٩٨٥.

الصحفيين والأدباء، ونجم شباب الأحرار الدستوريين، نتوارث الملل جيلًا بعد جيل، ويقتلنا القرب، فنطير إلى نور حارق.

عمار هرب إلى حدتو ، واعتبر السجن حرية، أعجبني أنه فعل ما يؤمن به، ولكني كنت أتمزق خوفًا عليه، بعد خروجه من المحنة قررت تزويجه، ولكنه فاجأني بأنه تزوج فعلًا برفيقته فتحية، فلما جاء فؤاد، وتصورت أنه قد يكون تعويضًا عن غياب عمار، أخذه مني، ولم يسمح لي أن أصادقه، أشعر أنه كان يتعمد أن يفعل ذلك، والآن فؤاد يبدو غريبًا عني، ثلاث جزر منفصلة تكرر لعنة الساعاتي.

وحيدًا عشت، ووحيدًا أموت، سينما مُرجانة كانت إحدى محطات الهروب، مثل جلسات الشعر، ومثل جلسات تحضير الأرواح، وجدت نفسي في الأطياف المتحركة، أحببت عبد الوهاب وأنور وليلى وتحية وفوزي وسامية جمال، سامية الجميلة التي فتنتني في عفريتة هانم، حاولت أن أكون ممثلًا وفشلت، ظهرت في مشاهد قليلة وسط المجاميع، أرتدي بدلة ردنجوت، وأحمل كأسًا، وأضحك في سعادة، أجمع قصاصات الأفلام، وأذهب لحضور العروض الأولى، لأشاهد النجوم والنجمات، وألوّح لهم.

قال أبو شهبة إن قطعة أرض واسعة بجوار كوبري عباس يمكن أن تكون دار عرض نموذجية، لم أفكر قط أن أمتلك دارًا للعرض، ولكن رؤوف كان دومًا صاحب اقتراحات تقتل الملل، تمسكت بالفكرة، اخترت أن أسميها سينما مُرجانة، أنا صاحب فكرة نقل صورة سامية جمال في عفريتة هانم، اتصلت بالصحفي الكبير إبراهيم شوكت، وعرضت عليه فكرة دعوة سامية لافتتاح السينما، أدهشتني

الصحفيين والأدباء، ونجم شباب الأحرار الدستوريين، نتوارث الملل جيلًا بعد جيل، ويقتلنا القرب، فنطير إلى نور حارق.

عمار هرب إلى حدتو ، واعتبر السجن حرية، أعجبني أنه فعل ما يؤمن به، ولكني كنت أتمزق خوفًا عليه، بعد خروجه من المحنة قررت تزويجه، ولكنه فاجأني بأنه تزوج فعلًا برفيقته فتحية، فلما جاء فؤاد، وتصورت أنه قد يكون تعويضًا عن غياب عمار، أخذه مني، ولم يسمح لي أن أصادقه، أشعر أنه كان يتعمد أن يفعل ذلك، والآن فؤاد يبدو غريبًا عني، ثلاث جزر منفصلة تكرر لعنة الساعاتي.

وحيدًا عشت، ووحيدًا أموت، سينما مُرجانة كانت إحدى محطات الهروب، مثل جلسات الشعر، ومثل جلسات تحضير الأرواح، وجدت نفسي في الأطياف المتحركة، أحببت عبد الوهاب وأنور وليلى وتحية وفوزي وسامية جمال، سامية الجميلة التي فتنتني في عفريتة هانم، حاولت أن أكون ممثلًا وفشلت، ظهرت في مشاهد قليلة وسط المجاميع، أرتدي بدلة ردنجوت، وأحمل كأسًا، وأضحك في سعادة، أجمع قصاصات الأفلام، وأذهب لحضور العروض الأولى، لأشاهد النجوم والنجمات، وألوّح لهم.

قال أبو شهبة إن قطعة أرض واسعة بجوار كوبري عباس يمكن أن تكون دار عرض نموذجية، لم أفكر قط أن أمتلك دارًا للعرض، ولكن رؤوف كان دومًا صاحب اقتراحات تقتل الملل، تمسكت بالفكرة، اخترت أن أسميها سينما مُرجانة، أنا صاحب فكرة نقل صورة سامية جمال في عفريتة هانم، اتصلت بالصحفي الكبير إبراهيم شوكت، وعرضت عليه فكرة دعوة سامية لافتتاح السينما، أدهشتني

موافقتها السريعة، كانت قد ابتعدت عن الأضواء لسنوات، وكانت سعيدة بأن ترى صورتها مجسمة، تحت اسم مُرجانة، ربما تمنت أن تحمل السينما اسمها.

لم أهتم بهمسات أهل بلدتنا عن ابن الأعيان اللي فتح سينما، وعن الراجل البارد اللي عمل سينما صيفي والبلد في جنازة بعد هزيمة السنة اللي فاتت، كنت واثقًا أن الأيام القادمة هي زمن رواج السينما، المصرية والهندية وكلها، الناس حزينة وتريد أن تفرح، أو تهرب، أو تنسى، وجيل جديد طالع، نجماته جميلات، وأبطاله شعرهم مسترسل وطويل، وعبد الحليم في عز مجده، وأنا سأجد مكانًا ودورًا وحياة في فصل الصيف، ويمكن أن تتحول السينما إلى شتوي وصيفي معًا، كانت مُرجانة نورًا وسط الوحدة، آخر أمل في حياة مبهجة لبهجت التعيس، الذي لم يحقق شيئًا، والذي يضحك، ويزعم أنه شاعر، ومثقف، وفنان، والذي ظل على هامش كل شيء، ولكنه ما زال يحاول.

زاد ارتباطي بمُرجانة بعد موت زوجتي رتيبة، كانت في عالم منفصل عني وعن ابنها عمار، وحفيدها فؤاد، منذ إصابتها بالاكتئاب، تحملتُ في صمت وصبر حياة كئيبة فرضتها رتيبة علينا، لم أتزوج بعدها، ولكن كانت هناك فريدة.

أعرف أن فارق السن كبير، وأعرف أن الفقر وحده هو الذي دفعها أن تكون عشيقة، وأن تقبل كل شروطي، وحيدة وجميلة، اكتفت بالثانوية العامة، قبلت أن نلتقي في شقة السيدة، وأن أتكفل بمصاريفها هي وابنها من زوج سابق مات في الحرب، ولكني أحببتها،

كانت طيبة ونشيطة وعملية، وكانت عاشقة للحياة وللحكايات، وكنت أحب كل ذلك.

في مرجانة، وبعد انتهاء العروض اليومية، كنت أجمع شلة شبرا، نفترش السجاجيد أمام الشاشة مباشرة، ويحضر فرج الجوزة وزجاجات البيرة، نبدأ الثرثرة وإطلاق النكات، ويبتلع الفضاء ما نقول، نستمع لمغامرات جنسية أثق أنها وهمية، ولكننا نصدقها، ونغني أحيانًا مقتطفات من إبداعات حليم وبليغ الجديدة، نتمايل ونحن نردد بأصواتنا المنكرة:

زي الهوا يا حبيبي.. زي الهوي.. وآه من الهوى يا حبيبي.

لا يزعجنا أن يفتح أحدهم الشيش متأملًا ما نفعله، ولا نبالي بمرور الوقت، ثم نختتم الجلسة بالشعر، أحفظ الكثير من شعر المتنبي وابن الرومي وعمر ابن أبي ربيعة، ومن شوقي ونزار، ثم أجعلهم يسمعون أشعاري الجديدة، التي لم تكن سوى صياغات جديدة لمعاني كبار الشعراء، يهللون وتتزايد صيحات الإعجاب، ننام في أماكننا، ثم نستيقظ على أصوت صرخات قريبة.

قال لي فرج ذات يوم إنه يسمع هذه الصرخات يوميًا قرب الفجر، ولكني لم أكن أصدقه، في مرة أخرى، قال فرج إنه شعر بيد تحاول أن توقظه قبل الفجر، وهو نائم أمام الشاشة، فاتهمته بالتخريف، طلبت منه ألا يحشش أو يشرب البيرة معنا، إذا كان خرع بالشكل ده.

عندما سمعنا الصراخ أفقنا منزعجين، جرى رؤوف أبو شهبة هاربًا، مما أضحكنا، وقفنا متماسكين، ورجّحنا أننا تقّلنا في الشراب، فجلسنا صامتين، وعندما طلعت الشمس تناولنا صامتين سندوتشات

الفول والطعمية التي أحضرها فرج، وكأننا في جنازة، بعضنا لم يمكث لتناول الشاي، وفشلت أكثر من محاولة لإضحاكي بنكَت مكشوفة، رغم أنها كانت نِكات ملعوبة وزي العسل.

لم تجتمع الشلة مرة ثانية في ساحة مُرجانة، ولكني بدأت بأخذ كلام فرج بجدية، قررت أن أبيت معه بعد العرض عدة أيام، لا نطفئ لمبة واحدة، بل إنني ركبت كشافات ضخمة، ليست موجودة في أي دار عرض، كنا نفرش سجادة أمام الشاشة، دون جوزة أو بيرة، ولكننا لم نسمع شيئًا، قلت للشلة إنه الكيف في الغالب، تهيؤات مساطيل، فانطلق طوفان من نكات عن المساطيل، وضحكنا كما لم نضحك من قبل.

بعد أسابيع كان فرج يبلغني مترددًا بعودة الصراخ، وبلمسات اليد، وبعد أيام كنت معه قرب الفجر، في منتهى اليقظة والانتباه، دون الجوزة والبيرة، وكان الصوت يصرخ ألمًا أو فزعًا، بعدها قررت بيع مُرجانة نهائيًا، دون تردد أو تراجع، في كل خطوة عفريت يا آل الساعاتي، ونحن موعودون بالأشباح.

قبل أن أبحث عن مشترٍ، كانت الأمور قد ازدادت غرابة، سمعت نفس الصراخات قبل الفجر في حجرة نومي في بيت قليوب، وفي حجرة نومي في شقة السيدة، وشعرت بيد توقظني في نفس الشقة، فهربت إلى شقة رؤوف في شبرا، وكان عنده كالمعتاد بعض الحلول.

قال رؤوف إنني لا يمكن أن أقضي حياتي هاربًا، وإن عالم الأرواح موجود، لديه دراسات وأبحاث في هذا المجال، رغم تخصصه في مجال القانون، هذه رسائل غامضة وغير مؤذية، أقارب أحباء أو

سكان قدامى يتألمون، لا ضرر ولا خوف، عالم موازٍ زاحمناه في أماكنه، يمكن التكيف والعيش معه، بل يمكن ترويضه والتواصل معه.

لطالما أدهشني رؤوف بشطحاته، وبجمعه بين قوانين العلم، والانغماس في عالم الروح، الذي لا نعرف قوانينه، المعرفة، كما قال، بلا حدود، وهو لم يكن يؤمن بعالم الأرواح، حتى نجح عبر وسيط في استدعاء روح زوجته، وأصبح الآن مؤمنًا بأن الأرواح طيبة في معظمها، وأننا أقسى وأكثر شرًا منها بما لا يقاس.

فكرت وقتها في أن جنون رؤوف أهون من بيع السينما وبيت قليوب وشقة السيدة، قلت لنفسي إنني كبرت على فكرة الهروب عمومًا، فلتكن حربًا ضد الهروب، وليست حربًا ضد العفاريت وصرخاتها.

أعطاني رؤوف خمسة كتب ضخمة عن عالم الأرواح، انغمست معه في مناقشات وحوارات مستمرة، ثم بدأت مع رؤوف جلسات لتحضير الأرواح، كنت مندهشًا من تباعد مرات سماع أصوات الصرخات، ومندهشًا أكثر من سماعها دون خوف، بينما ظل فرج يرتعش على الدوام، ثم وجد أن الحشيش والبيرة يخففان كثيرًا من الصدمة، التي يجب مواجهتها والتكيف معها، فصار يضحك إذا سمع الصرخات، وصار معتادًا على لمسات اليد في أثناء نومه العميق.

لم أذهب إلى مُرجانة، تصلني الأصوات والصرخات بعد مصرع عمار وفتحية في كل مكان، ستتوقف عروض الأفلام، ولكن مُرجانة ستبقى حتى يتسلمها حفيدي يومًا ما، ربما يبيعها أو يجد ما يفسر الأصوات، كل ما أتمناه ألا يهرب، وأن يواجه قدره وحيدًا مثل

سلسال أسرته التعيسة، وأن يروض العفاريت التي تطاردنا.

أتمنى أن يجد فريدة الحبيبة، وأن يمنحها وابنها بعض المال، أو يهديها شقة السيدة، أنا صاحب الخطأ، وهو صاحب قرار التصرف، اختفت فريدة عندما...

ملحوظة: تضاف الفقرة السابقة الى كتاب مذكراتي"

انتهت الكلمات المكتوبة، فتوقفت عن القراءة.

كان وجه المتر موريس يضيء بألوان الطيف، فتوهمت أنني أسمع صرخة رجل يتألم، صوته يمزق القلوب.

-٤-

مريم

لم أصدق حكاية أشباح جدي، التي وصلت إلى قليوب والسيدة، بالإضافة إلى سينما مُرجانة، ولم يصدق الحكاية المتر موريس، ولكنه كان مندهشًا مما سمع من اعترافات بهجت، وكنت مستغربًا من اكتشاف رجل ظننت أنني أعرفه، أو على الأقل أعرف مفاتيحه.

ظننت أن جدي رجل متصالح مع نفسه، قد لا يكون سعيدًا، ولكنه ليس تعيسًا، بينما الورقة تقول إن جدي الشاعر ليس سوى حشاش له عشيقة، يؤمن بالخرافات وتحضير الأرواح، ويعرف أنه كان دومًا على الهامش، صدمه مصرع ابنه وزوجته، فهرب من جديد إلى عالم آخر، ولكنه يمتلك مذكرات، مثلما يمتلك ذوقًا متواضعًا، يظهر في شقة السيدة، ويبدو أنه مات فعلًا قبل أن يموت رسميًا بسنوات طويلة.

في رأي المتر إن الورقة لا تغير الكثير، فقد كان يعلم قصة الشبح من فرج، ومن جدي، ولا توجد آثار قانونية لاكتشاف وجود عشيقة، الأمر متروك لي في التصرف معها لو ظهرت، ولكن ما يستحق الاهتمام هو حكاية الهروب التي ظلت تؤرق جدي حتى النهاية.

قلت إن ذلك بالضبط ما جعلني أختار أن أبقى، على الأقل لشهر أو أكثر، لدي ما يستحق اختبار مواجهة الماضي، لست سعيدًا مثل جدي، بل وحيدًا مثله، والحياة في القاهرة تشعرني بانعدام التوازن، ولكني فقدت شغفي بالعمل في دبي، لو عدت الآن لن أستطيع أن

أواصل عملي، في قلبي جراح تنتظر الشفاء، فلتكن إقامتي مثل فترات العلاج والنقاهة، أعود بعدها إلى العمل بشغف يليق بمجانين أسرة الساعاتي.

عانيت في اليوم التالي لاكتشاف الورقة من كابوس مزعج، رأيت جدي شابًا بهيئته في الصورة، يحمل عصاه لمطاردة مسخ مشوه، وتغير المنظر لأجدني وقد نمت أمام شاشة السينما، وسط الدخان، وعدة أيادٍ طويلة توقظني من النوم، كنت أصرخ محملق العينين، ولكن دون صوت، وكان صوت فرملة سيارة ممتزجًا بانفجار مدوٍّ، يحل محل الصوت الغائب.

قمت مفزوعًا مع ميكروفون أذان الفجر، الذي تعودته، العرق يغطي وجهي، والتيشيرت الأبيض الذي أرتديه، رويت ظمئي بزجاجة مياه بجوار السرير، وخرجت إلى البلكونة، كانت نسمة طرية تخفف من وحشة الليل، ولكني أدركت على نحو مؤلم أنني أكثر وحدة مما ظننت.

هذه الشقة الكئيبة يمكن أن تقودني إلى الجنون، فتحت حجرة المكتب، وتسليت بقراءة عناوين الكتب، أشك أن جدي قد وجد وقتًا لقراءتها، باستثناء كتب الأرواح، التي جلّدها تجليدًا فاخرًا، فتحت أدراج المكتب فلم أجد سوى ملفات قصاصات صفراء لأخبار فنية، وصور لأفيشات أفلام، وبعض الصور الملونة لممثلين وممثلات، وأقلام حبر وجاف، وكراسات وكشاكيل وأجندات فارغة السطور.

ذهبت إلى سينما مُرجانة، قلت لعم فرج إنني عرفت قصة الشبح القديمة، من ورقة كتبها جدي، وعثرت عليها، ولكني لا أصدقه، ولا

أصدقك، أما السينما فتستحق الاهتمام، ما يقوله جدي عن زمنها، وعن رواج عرض الأفلام، وعن سحر المكان ليلًا، كل ذلك يجعلني أفكر في أن تعود السينما، قد تشغّلها إدارة محترفة، فأتركها عائدًا إلى دبي.

قال عم فرج وقد تربع على الأرض:

- الله يرحمه الباشا، كان جدع وصاحب صاحبه.. بس والله موضوع العفاريت ده حصل.. و...

قلت في ضجر وقد استعرت صوت وهيئة المتر: "طيب هنشوف"، وأضفت:

- بس المكان كله محتاج ترميم.. ويمكن نغطيه عشان ينفع في الشتا.. وهنرجّع شباك التذاكر.. خلينا نحلم.

ضحك عم فرج ضحكته التي لا تعني سوى أنه يفكر في رد، ولكنه لم يجد ما يستحق التعليق، نفخ دخان سيجارته، وأطرق في صمت.

في طريقي إلى البيت، كانت بطة جالسة منكسة الرأس، في انتظار حذاء يستحق التلميع، أطلقت صفارة بفمي حتى تنتبه، نظرت إليها مبتسمًا، فلوحت بيديها، وأشارت إلى أظافرها، فرأيت لأول مرة المانيكير الأسود الذي وضعته، أحسست بسعادة غامضة، وامتلأت بثقة لا أعرف مصدرها.

أيقظني من نوم ساعة العصاري جرس التليفون، رفعت السماعة، فجاءني صوت أعرفه:

- إزيك يا فؤش.. وحشني.. أنا مريم.

ما زالت تمتلئ بالحيوية، وتبعث على التفاؤل، مريم الجميلة، ذكريات المنيل، الألعاب البريئة، شجرة التوت، واكتشاف الأنثى.

هتفت في حماس:

- يا خبر.. ده تقريبًا أسعد تليفون استقبلته في الأيام الغبرا دي.

- ما ترغيش.. مش فاضية.. لو عندك وقت عازماك في فلفلة على الساعة ستة.. جاي ولا نلغي ونشوف وقت تاني؟

قفزت من السرير بعد إعلان الموافقة الفورية، ما زال الوقت طويلًا، حلقت ذقني، وأخذت دشًا سريعًا، نزلت، وأسلمت الحذاء لبطة، بعد أن مدحت ذوقها في اختيار المانيكير، اخترت مقهى صغيرًا، من أجل فنجان قهوة يزيدني يقظة، كنت أعود ببطء وبحقة إلى سنوات الطفولة والمراهقة.

تكبرني مريم بخمس سنوات، ويكبرني فادي بأربع سنوات، ولكنها كانت زعيمة الشلة كلها، أذهب مع أبي وأمي لزيارتهما في المنيل، شارع جانبي هادئ، تقف أمامه شجرة توت معمرة، وتحيط به بلكونة نصف دائرية، تقف مريم وقد جعلت شعرها ذيل حصان، تلوح لنا إذا رأتنا، أعرف أن اليوم سيكون مليئًا بالألعاب والجري والقفز، كوتشينة والسلم والثعبان وألف باء الشطرنج، وحكايات تخترعها مريم، أو تقرؤها لنا من كتب مرسومة. لا تتوقف عن الحركة، صوتها مرتفع، وعيناها الرماديتان تمنحانني شعورًا لا يوصف بالأمان.

مرة أحضرت لنا دودة القز التي تربيها، ومرة أخذت ترسمنا أنا وفادي في كراسة الرسم الخاصة بها، وعندما قلنا إن الرسم لا

يشبهنا، غضبت ولم تكلمنا حتى نهاية اليوم، ظلت جميلة حتى عندما ارتدت نظارة طبية، وكانت أنيقة دائمًا وعلى الموضة، تطبخ وتحب عبد الحليم، تكتب خواطر، وتشاهد حلقات المفتش كولومبو، وتحل ألغازها قبل أن يكتشفها المفتش الشهير.

أول قُبلة من أنثى كانت من مريم، كنت في العاشرة، وعندما أجبت عن سؤال في مسابقة وهمية تنظمها لنا قبّلتني على خدي، فسرت رعدة في جسدي، واحمرّ وجهي، نظرت إلى الأرض، وواصلت الأسئلة، تمنيت أن تكرر قبلتها، ولكنها لم تفعل.

في الزيارات التالية كنت أتعمد أن تظل يدها في يدي برهة أطول من اللازم، وكانت تبتسم في مكر وسعادة، أختلس النظر أحيانًا إلى ساقيها الجميلتين العاريتين، تضبطني فتبتسم، وأراها فأنكس رأسي. في الصيف، ترتدي بلوزة بيضاء عارية الذراعين، وبنطلونًا أخضر، فتبدو مثل ممثلات السينما، ويزيد تعلقي بها، كانت تشعر بذلك، ولكنها لم تتقدم خطوة في هذا الطريق، كنت عندها الأخ الأصغر، الذي يجب رعايته، والذي يمكن أيضًا أن تراجع معه أسئلة الامتحان، وأن تنصحه بالنوم الكافي، كلما ظهرت هالات سوداء تحت جفنيه.

ولكني كنت أستعيد مريم في أحلام النوم، وفي أحلام اليقظة، اختفت ملابسها، وظهرت عارية في أحضاني، توهمت نوم فادي في أثناء مراجعة الدروس، واقترابها مني لتقبيلي، وتخيلت أنها أخذتني إلى حجرة نومها.

كنت أشعر بالخجل عندما ألتقيها في اليوم التالي، وأعتقد أنها

تتلصص على أحلامي، وأنها يمكن أن تفضحني أمام الأسرة كلها، وقد ينتهي الأمر بالطرد والمقاطعة.

كانت مريم هي المرأة بالنسبة إليّ لسنوات طويلة.

بدت فاتنة وهي تدخل فلفلة في بنطلون جينز أزرق، وبلوزة بيضاء خفيفة، عارية الذراعين، وفي قصة شعر قصيرة، مثل تسريحة الأميرة ديانا. حملت مريم شنطة جلدية سوداء، من نوعية يحملها الصحفيون عادةً، واتجهت مباشرة إلى مكاني، احتضنتني وقبّلتني، فاستطعمت مذاق التوت الأحمر.

- مش خسارة فيك يا جميل.. بوسة بعد خمس سنين غياب.. لو غبت أكتر كان هيبقى فيه كلام تاني على رأي كابتن لطيف.

- لو كدة أغيب ٢٠ سنة.. وبعدين مش خايفة تبوسيني وبرة راجل بدقن بميكروفون بيجمع تبرعات...

ضحكت بصوت عالٍ لفت أنظار الجالسين حول الموائد المجاورة.

قالت وهي تضع شنطتها على المائدة بعدم اهتمام:

- ما تستفزنيش وإلا أخرج معاك ونبوس في ميدان طلعت حرب...

غلبتها طبيعتها العملية، فطلبت النادل، وبدأت باختيار أنواع الطعام المطلوبة: فول بزيت الزيتون وفلافل وبيض بالبسطرمة وتشكيلة سلطات وعصير برتقال، وقبل أن تسألني عما أطلب، قلت لها:

- هاتيلي زي اللي طلبتيه.. ما اقدرش أراجعك يا أبلة.

ضحكت بصوت أكثر ارتفاعًا، وقالت:

- شاطر.. بداية موفقة.. وحشني يا قمر.

قلت في نفسي إنه إذا كان هناك ما يبرر بقائي في مدينة العفاريت هذه، فستكون بالتأكيد هي تلك البيضاء التي تتدفق بالحيوية أمامي.

من أين تأتي بهذه الطاقة في عالم يمتص أي محاولة للشروع في بعض الحماس؟

- شوف.. مرسيه يعني إنك قلت لبابا يحكيلي عن سينما مُرجانة وجدك ومذكراته وعفاريته.. أنا باحب الحواديت من زمان.. بس مهنيًا كمان القصة كلها شايفاها مكتوبة قدامي.. ويمكن تكون غلاف روزا.

- مش للدرجة دي.. وأنا الحقيقة كنت عايز أحكيلك بنفسي.. لكن خفت تستهيفي الموضوع.. مش عايز موضوع صحفي.. أنا تايه يا أبلة مريم.. مش عارف راسي من رجليا.

- وإيه الجديد؟ طول عمرك كدة يا فؤش.. ده أنا اللي اخترتلك كلية الهندسة.. وكان ناقص أشتريلك ملابسك الداخلية!

تمنيت أن تكلمني أمي بمثل هذه الطريقة الحميمية، ولكنها لم تفعل قط، فأرسلت السماء أنثى خالدة تلعب دور الأم والصديقة، أتمنى أن تلعب أدوارًا أخرى، فعلًا وحقًا لن أمانع، أنا في هذه اللحظات الجميلة إنسان آخر، تخلص من العجز فجأة، وصار قادرًا على الفعل.

- اسرح يا عبيط زي عادتك.. كل واشكر ربنا إن ليك حد يهتم بيك.

راقبت طريقتها الرشيقة في التهام الطعام، كانت تأكل بسرعة منذ الطفولة، لديها دائمًا ما هو أكثر أهمية، وكنت آكل بشهية لم أعرفها منذ عودتي.

- الشاب العائد لفتح سينما صيفية مغلقة.. والسينمات المقفولة عمدًا أو بالصدفة.. دي قصة صحفية حلوة.. وعفريت السينما ده برضه قصة لطيفة.. حاجة كدة زي شبح الأوبرا.

- إيه حكاية "عمدًا" دي؟ يعني فيه ناس بتقفل السينمات بالقصد...

- لسة باجمع معلومات.. مُرجانة ولا شهر زاد بتاعتك دي نوّرت حاجات في دماغي.. كذا سينما اتقفلت في مصر وإسكندرية في سنوات متتالية.. شتوي وصيفي.. في مناطق مهمة أو في شوارع فرعية.. ممكن يكون بسبب مشكلات الصناعة نفسها.. واللي تقريبًا عايشة على فيلم لنادية الجندي وفيلم لعادل إمام ونبيلة ومديحة برضو.. بس المريب إن السينمات بتتباع بعد كدة وبتتهد وبتتحول لمؤسسات خيرية ومستوصفات ودور حضانة.

منحني طعم البرتقال المثلج انتعاشًا وانتباهًا إضافيًا، قلت بهدوء:

- بقى فيلم فيلم.. نظرية المؤامرة من تاني...

- هنشوف على رأي أبونا موريس.. بس موضوعي هيكون العكس: الواد وريث عائلة الساعاتي هيجدد السينما.. وهيخليها مركز ثقافي وترفيهي.. والمثقفين والفنانين هيحتفلوا بالمناسبة.. هنعمل جمعية كمان لإعادة فتح السينمات المقفولة.. ونجمع تبرعات لاستعادة نشاطها.

يا إلهي.. كيف اتسعت حكايتي على هذا النحو؟ وكيف تحولت حكاية ميراث عائلي إلى دراما بحجم البلد؟ وكيف خرجت من شرنقة ورقة جدي إلى عالم ملون مفعم بالحياة؟

نظرت إليها بإعجاب، ولكني عدت مرة أخرى لفرملة الأحلام:

- حلو ده.. بس أنا لسة مش عارف هاعمل إيه لو قعدت.. يمكن أفضل أظبط الأمور وأرجع دبي.. عندي كمان مشكلة الفتور بعد الحماس.. الجو العام مش مشجع.. البلد متحنطة تقريبًا.. الدقون كترت.. والمتر بيتكلم عن أيام صعبة في الطريق...

كانت تنظر إليّ باهتمام لا أظنني أستحقه، وكترجمة لهذا الاهتمام فتحت شنطتها، وأخرجت علبة مارلبورو وولاعة، أشعلت سيجارة، وتعمدت أن تنفخ الدخان في اتجاهي، ابتسمث مثل طفل، عندما بدأت بمطاردة دخان السيجارة، وكأنني أهش ذبابة أمام وجهي.

قالت بعد أن انتهيت من الكلام:

- موافقة طبعًا على كل ده.. وأزيدك من الشعر أبياتًا.. إحنا "سمك لبن تمر هندي" على رأي رأفت الميهي.. المنطقة كلها داخلة كمان على أيام صعبة.. الجماعات قتلوا السادات ولسة قاتلين رئيس الجزاير.. المعركة عمرها ما هتخلص.. بس كمان إحنا لسة بنحاول.. لو شفت الناس اللي كانت بتساند فرج فودة في مناظرة المعرض.. فاتتك دي.

- آه وبالأمارة انتصر عليهم فقتلوه...

ارتفع صوتها فجأة، حتى إن النادل اعتقد أنها تناديه:

- يا سلام.. طب نخاف يعني.. هَمّ ما يعرفوش غير العنف.. بس

مخ ما فيش.. هيدمروا نفسهم بنفسهم.. وعن الجمود اللي البلد فيه فإحنا اللي اخترعنا التحنيط.. ده جزء من الحضارة المصرية على فكرة.

كتمت ضحكة، لأنني لم أعرف حدود الجد والهزل في كلامها، ولكن انفعالها واحمرار وجهها جعلاها أكثر جمالًا.

قررت أن أتوقف عند هذه الثورة، واخترت أن أفتح موضوعًا آخر تحبه.

- المتر قاللي إنك على تواصل مع الشلة كلها.

- مش تواصل.. لكن عارفة أخبارهم.. وأعرف أوصل لهم.. عايز تشوف حد غير همس نادي.

بدا لي أنها ترد على استفزازي لها، لم أعلق على اسم همس نادي، وكأنني لم أسمع شيئًا.

- أنا فاضي.. تقريبًا صايع لمدة شهر أو أكتر.. أحب أولًا أعرف أخبارهم.. وأشوف بعضهم.. أحب أستنير برأيهم.

عادت إلى مرحها المعتاد:

- حلوة أستنير دي.. بس يعني أحوالهم عمومًا ما تشرش.. باستثناء سمير توفيق.. دلوقتي ناقد سينمائي مهم.. وعامل كتابين.. وعنده محاولات في كتابة السيناريو.. وبيعرض أفلام في الأتيليه.. شعلة نشاط.. طول عمره عارف سكته.

- إزاي يعني؟ يدرس زراعة ويكتب في السينما؟

- إنت ما تعرفش إن دراسة الزراعة أول خطوة في عالم الفن؟ واضح إنك جاهل فعلًا.. قوم بينا.. عايزة أحبس اللقمة اللي طفحتهالك.

قبل أن أرد، كانت قد أشارت إلى النادل، ودفعت الحساب، ثم تقدمتني في اتجاه باب الخروج، لم أستطع أن أمنع نفسي من تأمل جسدها اللدن، يبدو أنني استعدت الرغبة في الجنس.

قلت ونحن على ناصية فلفلة:

- ابعدي والنبي عن قهاوي المحقفين.. أنا مش ناقص.

قالت ببساطة:

- عنيا.. هاوريك قهوة ماحدش يعرفها.

مدت يدها إليّ ببراءة مثل أم حنون، فأعطيتها يدي، سرنا معًا على رصيف شارع طلعت حرب، ابتسمنا عندما رأينا جامع التبرعات، صاحب الذقن والجلباب الأبيض، كان ما زال يتجول بميكروفونه في ميدان طلعت حرب، فتركت يدها، وابتعدت بمسافة، ضحكت بصوت عالٍ، خفت فعلًا أن تقبلني في الميدان.

"الزعيمة" هكذا سمّاها المتر، لا أعتقد أنها تستطيع السكون أو الجلوس لفترات طويلة، أظن أنها لا تنام كثيرًا، وإذا نامت حلمت بالمشي، مريم هي التي عرفتني على الشلة كلها، ينتمي أفراد الصحبة إلى كليات مختلفة، عرفتهم هي من خلال اتحاد طلاب الجامعة، وسعدت كثيرًا عندما جعلوني صديقهم، رغم فارق السن والخبرة.

لم تقنع مريم بالصداقة في المناسبات، ولكنها رتبت لقاءات ورحلات، أخذتنا في رحلة مشي إلى السيدة والقلعة والحسين، ومرة ذهبنا إلى مصر القديمة وجامع عمرو، وعندما عُرض فيلم "اليوم السادس"، حجزت لنا في سينما كريم الجديدة، وكانت مشكلة، لأننا كنا نضحك على لهجة داليدا، بينما كانت في منتهى التركيز مع الفيلم، ولذلك حرمتنا من فسحة السينما لعدة أسابيع.

مشكلات الكتب والمذكرات كانت تحلها مريم ببساطة، وهي التي تبادر بالسؤال، وكأنها في حاجة إلينا، وليس العكس، لديها فائض نشاط وأمومة، لو لم تكن هناك مهنة الصحافة لاخترعتها، قالت همس إن مريم تستحق جائزة الأوسكار في الصداقة.

كانت مستودع كل أسرارنا، تسمعنا بصبر وبال طويل، ولا تقترح حلولًا أبدًا، ولكنها تعيد تحليل المشكلة، فنراها بشكل مختلف، وكأننا كنا نتحدث عن مشكلة أخرى، ورغم أنني رأيتها مع زملاء كثيرين، ورغم غموض بعض مشاويرها المفاجئة، والاستئذان المتكرر للحاق بموعد، فإنها لم تقل لي على الأقل عن حكاية حب عاشتها، لا ناجحة ولا فاشلة، ولا عن أي سر من أسرارها، ظلت صندوقًا مغلقًا، وبابًا واسعًا اكتشفنا منه العالم الجديد، وكانت سعيدة بأن تكون كذلك.

عند تقاطع شارع عبد الخالق ثروت مع طلعت حرب، اتجهنا يمينًا إلى شارع شريف، عبرنا إلى الجانب الآخر، سرنا معًا إلى ممر، ظهرت في نهايته عدة مقاعد بلاستيكية زرقاء، في مواجهة ما يشبه الدكان الصغير، وأمام المقهى الصغير زاوية صغيرة للصلاة، بجانبها مدخل عمارة ضخمة متعددة الطوابق.

طلبت شايًا بنعناع لها ولي، لم تنتظر أن تسألني، نظرت إليّ في هدوء، بيننا طاولة معدنية صغيرة، انهمكت في متابعة خروج بعض المصلين من الزاوية إلى المقهى، والحركة العكسية أحيانًا، بدخول بعض رواد المقهى إلى الزاوية.

قالت:

- مش هاقولك تقرير تفصيلي عن الشلة.. هاخليها مفاجأة.. استنى تليفون واستعد.. إيه رأيك لو نجيلك.. أنا واللي أعرف ألاقيه منهم يعني.. على السينما مباشرة.. جهز لنا شوية كراسي.. ولو عندك حد بيعمل شاي.. عايزة أشوف المكان كويس.

- المكان معروف.. وهاوصفلك السكة لما تتصلي.. ما يتؤهش.. عندي حارس تخصص شاي.. قلب شباك التذاكر محل خردوات.. واكتشفت إنه نديم جدي في جلسات الأنس والفرفشة.. وفي مطاردة العفريت.. لو شافه سمير هيكتبه في فيلم...

بعد صمت إثر رشفة من الشاي المنعنع، قالت مريم:

- متهيألي الحكاية كلها مع الراجل ده.. الخيال بيقول كدة.. بس الواقع يمكن يقول العكس.. راجل غلبان أرزقي بيلقط رزقه.. فكرت إنه من مصلحته يحكي عن عفاريت عشان يوقف بيع السينما.. لكن كلام جدك في ورقة تافهة بيقول إن فرج جزء أصيل من حكاية العفريت.. نشر الحكاية فصدقوها أو شافوها قدام عينيهم.

انتظرت تحليلًا أكثر لفرج، ولكنها صمتت، ستراه في كل الأحوال، وستتكلم معه، وقد تقترح أشياء أيضًا عن ابنته باتعة، التي تظهر

وتختفي في المكان، والتي تبدو مثل فتاة فرعونية سمراء، خرجت من قلب لوحة حجرية.

بدا المكان مثل واحة في مواجهة صهد الشارع، وكان النادل العجوز يرطب الأرض، بين المقهى والزاوية بالماء، فتبتلعها الأرض، وتتبخر في التو واللحظة.

هتف رجل:

- يا عم سمّعنا أي حاجة.. ما فيش صلاة.. والزاوية فاضية.

جاءنا صوت رجل يغني:

"كل البنات بتحبك.. كل البنات حلوين.. طبعًا يا سيدي يا بختك.. وانت اللي زيك مين".

علّقت مريم بشقاوة:

- بيجيب سيرتك يا عم.

ضحكت، ورددت عليها:

- لا ده بيتكلم عن جدي بهجت فالنتينو.

- آه.. وحلقة كمان مفقودة.. عشيقة جدك.

- ولا في دماغي.. مش فاضيلها خالص.. وباعتبر كلام جدي عنها مش موجّه ليا خالص.. لما يكون فيه وقت ومرتاحين نهتم بيها.

- متهيألي فرج لازم يعرفها ما دام كان صاحب جدك.

توقفت عن تناول الشاي، أدهشني أنني لم أسأل فرج قط عن ذلك،

ثم فكرت أنني حتى لو سألته، فلن يجيب بما يعرف، أو لن يجيب على الإطلاق، وسيتحفني بضحكته البلهاء السمجة.

قلت لمريم ممتنًا:

- أنا مدين لك بإخراجي من الكآبة.. ومدين لك بحاجات كتير أوي.. اليوم ده هيغيّر كتير.

لم أكن صادقًا في العبارة الأخيرة، جاءت ابتسامتها لتقول لي إنها تعرفني من زمان، وتعرف أن التغيير عندي بطيء، وأنني أمُر بأوقات فتور تعقب فترات حماس، وبالعكس، وكأنني شخصان في رجل واحد.

- ماشي.. هافوّتها.. بس لازم أقولك كمان إنك فعلًا كنت وحشني.. وفادي بيسلم عليك.. في الغالب حييجي مع الشلة لو سمح وقته.

أصرت من جديد على دفع الحساب، على ناصية شارع شريف، ودّعتني بالأحضان والقبلات، وعندما نظر إلينا بعض المارة، تحدثت بالإنجليزية عبارات لا علاقة لها بأي شيء، ولكنها كلمات إنجليزية تذكرتها.

في الشقة كنت أضحك بصوت عالٍ، وأقول لنفسي إن شخصية مثل مريم تجعل الحياة جميلة، وشخصًا مثل المتر يشعرني بالأمان، ورجلًا مثل فرج يعطيني أسبابًا للإثارة، وبنتًا مثل بطة تثير الإعجاب، ورجلًا مثل جدي يستحق الاهتمام، لأنه جعلني أعرف كل هؤلاء، ومنحني فرصة لاكتشاف تجربة لا أعرف نهايتها، ولا أتمنى أن تتوقف فصولها أو أحداثها، حتى لو أخذتني إلى الجنون، كل

شيء مقبول بالنسبة إليّ، وأفضل من الرتابة والملل وفقدان الشغف.

أمضيت بقية الليل في تصفح جرائد ومحلات قديمة، وفي الجلوس في البلكونة، وعندما نمت رأيتني وسط حشد من الناس في ميدان طلعت حرب، ورأيت مريم وهي تضحك، ثم بدأت الرقص أسفل التمثال، وقفت السيارات، وزاد صوت الكلاكسات، ولكنها لم تتوقف عن الرقص، بدأ الشباب يصفرون، وانضمت إلى مريم فتيات كثيرات، من بعيد رأيت فتاة بشعر طويل، تقترب في هدوء، أخذت تشير إليّ دون توقف، تصورت أنها تريد مَن يقف خلفي، ولكنها رفعت إصبعها مؤكدة أنها تعنيني.

بدت ملامحها ضبابية، وعندما اقتربت رأيت همس، ولكنها اختفت فجأة، قبل أن أستيقظ سعيدًا.

-٥-

كمال

ظهر في حياتي كمال عبد الله، في نفس الأسبوع الذي بدأت فيه علاقتي الجسدية مع باتعة، التي أرسلها عم فرج لتنظف الشقة، اكتشفت الآن فقط، وفي لحظة الكتابة، أن محاولتي شراء المتعة من باتعة، تصادف حدوثها، مع محاولة كمال عبد الله أن يشتريني.

صباح اليوم التالي للقائي المبهج والملهم مع مريم، وجدتني أفعل شيئًا غريبًا، فقد جلست على المقعد الجلدي في حجرة مكتب جدي، وأمسكت قلمًا جافًا، وبدأت بكتابة كل ما حدث لي بعد عودتي لتسلُّم ميراث بهجت الساعاتي، اخترت أن أكتب بدايةً من أشباح عم فرج، وليس من أي نقطة أخرى، كنت حتى في هذه الفترة المبكرة من عمر كتابة الحكاية مدركًا على نحو غامض أن سينما مُرجانة -وليس أي مكان آخر- هي التي ستحدد مستقبلي من جديد، هذا لو كان لي مستقبل من الأساس.

كان الوقت طويلًا، فشرعت في الكتابة بلا توقف، اخترت للكتابة أجندة فارغة تحمل تاريخ العام 1987، سنة سفري إلى دبي، بعد الحصول على عقد جلبه لي المتر موريس، لينقذني من الضياع، ومن ذكريات الفشل العاطفي، ومن آثار مأساة أمي وأبي، أدهشني أن العبارات تتدفق على الورق، وكأنني أنقلها فقط من ذاكرتي، وأدهشني أكثر أنني بدأت في الشعور بالراحة بسبب الكتابة، وكأنها تُخرِج من داخلي حجرًا ثقيلًا، وتلقي به في مياه المحيط.

كانت لي محاولات ساذجة في كتابة بعض الخواطر في مرحلة المراهقة، بأسلوب بسيط، سجلت أكثر من مرة أحلامًا غريبة تطاردني، مثل أن أستيقظ فلا أجد أبي أو أمي في الشقة، فأظل وحيدًا أبكي في بلكونة البيت، أو أن يقوم الأستاذ عاكف، مدرس العلوم المفتري، بتذنيبي وقوفًا رافعًا يديّ، لأنني لم أرد عليه تحية الصباح، ومثل أن يضبطني أبي وأنا أقبّل الشغالة نجاة، التي كانت تتعمد ملامستي في المطبخ، في أثناء إعداد الطعام، ولم أكن أفعل سوى إبداء الذهول، وسط ضحكاتها العابثة، ولكني لم أجرؤ قط على أن أبادر بملامستها، خوفًا من فضيحة أراها في الأحلام، ومن عقاب متوقع يمكن أن يقتلني قتلًا.

من أين جاء هذا الخجل والخوف لحفيد بهجت "المعجباني"، ولابن عمار المناضل الذي لم يهزمه السجن؟

نسيت الكتابة لسنوات طويلة، وبعد لقاء مريم، الذي استدعى طفولتي ومراهقتي كلها، عدت لكي أكتب، ولكي أحصل على بعض التوازن، ولكي أكرر سيرة جدي بهجت، سواء في التحرر بكتابة المذكرات، أو بأن تكون لي عشيقة.

عرفت لمس جسدي أولًا، أفلام السبعينيات الجريئة، والميني جيب، جعلتني مشغولًا بتلك اللذة التي أراها في ملامسات الممثلين والممثلات، وفي تلك القبلات الطويلة، وفي الراقصات القديمات، تحية وسامية وكيتي، كيتي الفاتنة، كان يجب على جدي أن يستنسخ كيتي وليس سامية، كيتي جنيّة خرجت من القمقم، حتى نطقها الغريب للغة العربية يليق بجنية لا تنتمي إلى مكان أو زمان،

كانت الفتنة تمشي على قدمين، في ليلة كانت ترقص هائمة في خيالي، اقتباسًا من كونها عفريتة أسطورية، عرفت ما يجلبه جسدي من لذة سرية، يمكن أن تتكرر بأقل قدر من التأنيب والخوف، ودون كوابيس التذنيب والعقاب، وبعيدًا عن إغواء الخادمة نجاة التي كانت تكتشف معلي لذات مراهقتها العارمة.

مرت أوقات مع صور مجلات البورنو العارية، شاهدتها لأول مرة مع زميل الكلية علم الدين، اشتراها من سور الأزبكية من المعلم نور الذي يساهم في تثقيف الشباب، قال علم الدين إنه كاد يمزق المجلة في الطريق، فقد اختل توازنه في الأتوبيس عند النزول، وسقط على الأسفلت، اعتبرها علامة وإنذارًا سماويًا يحذره من البحث عن العاريات، وبعد أن سار قليلًا تراجع عن فكرة تمزيق المجلة، واعتبر أن المشكلة في الأتوبيس، وليست في العاريات، أقنع نفسه بأن الفرجة على النساء العاريات أقرب إلى الاستمتاع الخيالي، هو بالتأكيد أمر شائن وسيئ، ولكنه ليس من الكبائر، ونحن أبعد ما يكون عنها، حتى لو طلبناها، فلن نحصل عليها.

لم أقتنع بمنطقه من الأساس، وإن كان أراحني بشكل عام، ولو لا شعوريًا كما أكتشف الآن، توسعت في اكتشاف الجسد مع أفلام ثقافية تكفل بها فيديو صديقنا مجدي، أضحك كلما تذكرت أننا سافرنا إلى المنصورة في أيام إجازة نصف العام، لمجرد أن نشاهد فيلمًا ثقافيًا جديدًا.

مع جنيفر عرفت جسد المرأة كاملًا، مهندسة أمريكية شقراء، في مدينة عالمية متعددة الجنسيات، لا ترى في علاقات الحب إلا

تعبيرًا وهميًا عن الحاجة إلى الأمان، قالت لي بعد أن فرغنا من أول مضاجعة، إن الإنسان كُتب عليه القلق والاغتراب، والحب إحدى وسائله لتسكين القلق، بنج موضعي يزول بالزواج، أو بالفراق، الصداقة أيضًا محاولة لتقليل شعورنا بالقلق، وللوصول إلى حد أدني من الأمان الهش، تقريبًا كل ما نفعله مصدره البحث عن أمان لم ولن يتحقق، سنبقى في حالة اغتراب، يسدل عليها الموت الستار، وقبل الموت علينا أن نواجه حياتنا ووجودنا كمأساة، تستحق الترويض والمحاولة، دون أن نصدق أنفسنا، غرباء عن العالم أتينا، وسنرحل عنه غرباء، عراة جئنا، وسنرحل عراة.

كانت فيلسوفة فاتنة هاربة من وجودية الستينيات إلى بؤس وفوضى العمانينيات، لو كانت فيلسوفة فقط لظلت بالنسبة إليّ امرأة محيرة للضجر، ولكنها كانت في الفراش عاهرة محترفة، لا تهتم بمتعتها قدر اهتمامها بمتعة الطرف الآخر، وكانت متعددة العلاقات، وكلما توترت أكثر تعددت علاقاتها.

تعلمت منها فنون الجنس، ولكني تعلمت ما هو أسوأ، وهو الفصل الكامل بين العاطفة والحاجة إلى الإشباع الجنسي، وبين التفنن في تناول الطعام، والحاجة إلى تناوله، لا مشكلة في الحب، قد يأتي أو لا يأتي، ولكن الحاجة إلى الجنس تظل موجودة ومُلحة، ويجب إشباعها، نحن ورثة إنسان الغابة، ولسنا ورثة أفلاطون، قد يكون الجنس أمتع مع المحبوبة، ولكن ذلك لا يلغي أصل الإشباع الحيواني، ربما يكون الحب ستارًا لتحقيق هذا الإشباع، بمتعة جسدية أكبر.

تمتلك جنيفر مفاجآت مدهشة، تعشق ألف ليلة وليلة، في بيتها نسخ بلغات مختلفة من "ألف ليلة وليلة" و"الكاما سوترا"، وأحدث مجلات البورنو، وكتب متخصصة في السيكسولوجي، وبعض أدوات الإشباع الجنسي، ترى أن "ديفيد هربرت لورانس" و"فرويد" هما الأعظم في فهم الإنسان، وتعتقد أن ابن حزم الأندلسي وكتابه "طوق الحمامة" هو الأعمق في مجال العواطف، وتظن أن ابن حزم كتب كتابًا ثم أحرقه عن لذات الجسد مع الحبيبات. كانت جنيفر متحررة من الذنب، وكنت أحتفظ ببعض الرومانسية، وما زلت، ولكني اعترفت مثلها بالجوع، فأصبح الجنس، بعد فشل علاقتي مع همس، قرينًا للإحباط، وليس للسعادة، كان الجنس تفريغًا لطاقة مكبوتة، يمكن أن تصبح عنفًا هائلًا، إذا لم تجد جسدًا تفرغ فيه شهوتها.

لكني عانيت فتورًا جنسيًا منذ عودتي، الحر والعرق والزحام، والشعور الكامن بالحيرة، وبالعجز عن الفعل، كل ذلك جعلني فاترًا، حتى رأيت مريم ولمستها، وعاينت قُبلتها وجرأتها، فتنبهت من جديد إلى كائنات حولي، يمكنها أن تبدد وحدتي ووحشتي، وأن تلبي حاجتي إلى بعض الأمان، دون أن يقضي ذلك على مخاوفي كلها، "مخاوفنا أقدارنا" كما قالت فيلسوفة الهندسة الجنسية.

لم تكن باتعة في الذاكرة، رأيتها مرتين أو ثلاثًا وهي تنظف ساحة السينما، وتنظف حجرة آلة العرض، وتزيل الغبار عن المقاعد وعن سرير عم فرج، ثم تجلس بجلبابها الأسود مهدودة الحيل، تلمع قطرات العرق فوق جبينها، وينشع ماء المسح فوق صدرها، فأستعيد بعض الإثارة، ولكني أطرد فكرة أن أنام مع خادمة بائسة لديها ولد

من زواج انتهى بالطلاق، وهي قبل ذلك ابنة عم فرج، أحد أفراد عائلة الساعاتي المجنونة.

ولكن الفكرة تراودني، وتبرق من جديد، كلما تكلمت بلهجتها الغريبة، التي تجعل للعبارات ملمسًا طريًا مغويًا، تمط الكلمة فتصنع أطيافًا ملونة من الشهوات الموعودة، ورغم أن جسدها قوي، يليق بامرأة تعمل وتشقى، ورغم أنني اكتشفت عند مصافحتها أن يدها غليظة وخشنة الملمس، فإنني أقنعت نفسي أنها تشبه أميرة فرعونية، هربت من جدار لوحة في معبد ينتمي إلى عصر الدولة الحديثة.

في المرة الثالثة لرؤيتها في سينما مرجانة، خرج عم فرج لشراء سجائر، فسألتها عنه، مدحته كصديق وفيّ للعائلة، وكأب مكافح يعتني بابنته، ويحاول أن يجلب لها رزقًا ومالًا، فقالت باتعة دون اهتمام:

- عم فرج مش أبويا.. هو بيراعيني بس.. طيب وخدوم أوي.

أضاءت في عقلي لحظتها عصافير البهجة، فشاهدت جنيفر وهي تصعد وتهبط في سعادة، وسمعت شهقاتها الحقيقية والمُدّعاة، ولكن ظلت فكرة اكتشاف جسد باتعة أمرًا لا يستدعي السعي، فقد تكون هناك فرص أفضل، وقد أعود غدًا -لو شعرت بالملل والضجر- إلى جنيفر، صاحبة حق الامتياز الأصلي، رغم أن الأمريكية لم تكن تمانع في أن أهزم القلق في ساحة أجساد أخريات، لو أردت أن أفعل ذلك، وفي أي وقت أو مكان.

لم أتوقع أن يقترح فرج أن تذهب معي باتعة لتنظيف الشقة، بل

إنني تصورتها دعوة صريحة مقصودة من العجوز الحشاش، لعله يعرف أيضًا فريدة، عشيقة جدي، وقد يكون هو الذي أرسلها إليه، يعرف ذوق أسرة الساعاتي، وهو مسؤول الترفيه، سواء في سينما مُرجانة، أو في شقة السيدة، وربما اكتشفت له كرامات جديدة، وبصمات خاصة، في بيت قليوب، ومن يدري، قد يكون قد عرض خدماته على أبي أيضًا.

دخلت باتعة شقتي بعد يومين من لقاء مريم، هكذا أقوم بالتأريخ ارتباطًا بالنساء الملهمات، سحقًا للأرقام، ولأسماء الشهور، التي لا تعني شيئًا، المرأة هي التي تعطي للحياة معنى، تجعلنا نقف على أرض صلبة، بعد أن كنا معلّقين في الهواء، وباتعة طبق فول "مشطشط" بالزيت الحار، يمكنها أن تشبع جوعي المؤقت، ويمكنها أن تعطي بعض المعنى لهذه الدائرة العبثية التي يعيشها مهندس شاب، ألقوا إليه ميراثًا سيبدده في نهاية المطاف.

اختصرت باتعة الطريق، عندما خلعت جلبابها مثل عاهرة محترفة، فبدت في بلوزة خضراء، وبنطلون "استريتش" أحمر، ألقت منديل الرأس الأسود، فوق جلبابها المكوّم على الأرض، ادّعت أنها خلعت الجلباب، لتسهل حركتها في تنظيف ومسح الشقة، وافقتها ولكني اقترحت أن تؤجل العمل، بعد أن ندردش قليلًا، هي ضيفة في كل الأحوال، وليست خادمة.

رأيت وجهًا آخر للأميرة الفرعونية، لم تتغير العبارات الممطوطة، التي تنبئ عن أصلها الريفي، ولكنها صارت أكثر جرأة وراحة، كانت وقحة وهي تلمح إلى ظروف الحياة، التي تتطلب منها دخلًا إضافيًا،

مصروفات المدارس لابنها، وأجرة البيت التي يساهم فرج في دفعها أحيانًا، ولحوم المواسم، وبعض الملابس البسيطة من السنة للسنة، وأضافت عبارات أخرى عن شقاء تنتقل منه إلى شقاء، هي لا تعترض أو تعاند قدرها، ولكنها تسير في التيار، كانت باتعة فيلسوفة أيضًا على قدّها، وبطابع شعبي، وكانت أيضًا محترفة في السرير، ولكن بلمسات شعبية، تعطي للأصوات حقها، وتمنح الرجل سطوة شهريار، مع أنه ينتمي إلى أشباح المدينة المتربة.

عشرون جنيهًا ثمن باتعة، قالت إنه مبلغ كبير، لا تعرف كيف تنفقه، ربما شعرتُ ببعض الذنب، لأن ابن المناضل عمار بهجت يشترى عرق امرأة من الطبقة الكادحة، وربما شعرت ببعض الخجل، لأنني أكرر سيرة جدي مع البائسات، وعلى نفس السرير، الذي تختفي تحته ورقته وصورته، ولكني خدّرتُ عقلي بمنطق قوة الوراثة، وبحجة إعانة باتعة على مواصلة الكفاح، الذي اختارته بنفسها، دون إغواء أو تغرير.

بعد يومين جاءني صوت كمال عبد الله المحامي عبر التليفون، اتصل بي أولًا مدير مكتبه، وأوصلني إليه، لفترة ليست بالقصيرة ظللت مندهشًا، كنت أسمع عنه كونه محاميًا شهيرًا، ولكني لم أتخيل قط أن تكون بيننا علاقة من أي نوع، فقد ارتبط اسمه بقضايا رجال الأعمال الكبار، وبمحاكم الجنايات، وبملفات تجار المخدرات.

أدهشني أكثر بكلمة "فؤاد بيه"، وكلمة "سعادتك" التي كررها أكثر من مرة، كان يقولها بحميمية مثل صديق يعرفني منذ سنوات، وهو يدعوني لاحتساء فنجان القهوة في مكتبه، في "أقرب"

وقت يناسبني، فقط عليّ أن أبلغ مدير المكتب بعنواني، وبالموعد المناسب، وسيرسل إليّ سيارة، ثم يعطيني عنوان مكتب المحاماة في الزمالك.

هززت رأسي حتى أتخلص من القلق والحيرة والمفاجأة معًا، وقلت في صوت ظننت أنه لم يخرج:

- اللقاء بخصوص إيه؟

- خير سعادتك.. كله خير.. أنا وسيط في حكاية كدة هتفيد كل الأطراف.

متى كان هذا الرجل وسيطًا؟ ومَن الطرف الآخر؟ وعن أي شيء سيمارس وساطته؟

- وعلى فكرة.. أنا كنت أعرف جد سعادتك بهجت باشا.

اخترت أن يكون اللقاء في نفس اليوم، في السابعة مساءً، لن أصبر على الانتظار، هذه مفاجأة جديدة مثل كل المفاجآت التي أعيش فيها منذ عودتي، هذا الرجل يستأهل اليقظة الكاملة، ومفهوم "الخير" بالنسبة إليه يحير الفضول، ربما كان الأمر خيرًا فعلًا، لا بأس من سماعه، وإن كان صوته الناعم، وطريقته اللزجة في ادعاء الحميمية، لا يبشران بأقل خير.

جلست في المقعد الخلفي في سيارة مرسيدس فخمة، وصلت في الموعد الذي حددته، وأمضيت الوقت في استعراض ما أملكه من ميراث، وتخمين ما يمكن أن يطرحه كمال عبد الله من عروض، واستقر تخميني على شقة السيدة، وبيت وأرض قليوب، وابتسمت

لأنني تذكرت عبارة "سأقدم له عرضًا لن يستطيع أن يرفضه" من فيلم "الأب الروحي"، كانت دلالة العبارة مزعجة، ولكنها تبعث أيضًا على الابتسام.

أمام بناية في شارع بهجت علي وقفت السيارة، أسرع السائق بفتح الباب لي، صعدت في هدوء إلى الطابق الثاني، الذي عُلقت أسفل شباكه العالي يافطة ضخمة تحمل اسم المحامي الشهير، مكتوبًا بخط الثلث، وعند مدخل المكتب، استقبلني مدير مكتبه، في بدلته السوداء الواسعة، بحميمية مفتعلة، تليق بموظف كبير منافق، ثم فتح لي باب الدخول مباشرة إلى "الأستاذ"، مؤكدًا أنه في انتظاري من ساعات.

قبل الدخول، التفت سريعًا إلى صالة الاستقبال الواسعة، فبدا المكان مثل عيادات أطباء الأسنان الأنيقة والنظيفة، لمحت على الحائط المواجه لباب الدخول، لوحة ضخمة لأمواج بحر زرقاء يعلوها زبد أبيض ناصع، بينما كانت تنساب موسيقى مقطوعة الدانوب الأزرق، التي تعشقها همس.

تقدم "الأستاذ" لمصافحتي من وراء مكتبه، أدهشني أنه قصير للغاية، وبدين أيضًا، وتذكرت أنني لم أر له صورة قط في حجم طوله الكامل، حتى مرافعاته أمام المحاكم، يظهر فيها في نصف حجم، ولكنه كان تلك الليلة قزمًا في بدلته الرمادية، وكرافتته الحمراء، وشعره اللامع شديد السواد بفعل الصبغة، وبدا صوته أرق وأكثر نعومة مما سمعت عبر التليفون، وإن كانت سماجته متساوية في كل الأحوال.

احتوت كفه البضة كفي النحيفة، وقادني إلى كنبة جلدية فاخرة أمامها مائدة مزينة بالمفارش، وبعد التحية والترحيب، سألني عما أحب أن أشرب، وأمر مدير مكتبه بإرسال القهوة، وإغلاق الباب، وعدم المقاطعة أو الإزعاج.

تأملت الحائط المواجه، فرأيت صورة فوتوغرافية ضخمة بالألوان للأستاذ في أثناء المرافعة، بينما ظهر اسم الجلالة مكتوبًا بالخط الثلث، على لوحة ضخمة فوق كرسي مكتبه الضخم.

قال كمال:

- أنا أسمع عن سعادتك كتير.. وفرصة جميلة إننا نلتقي أخيرًا.

تململت في مكاني، وبان عليّ الضجر قبل أن نتحدث في أي شيء، فارتبك قليلًا، ولكنه سرعان ما استعاد زمام المبادرة.

- علشان وقت سعادتك الثمين.. أنا هادخل في الموضع على طول.. أنا مكلف من رجل أعمال كبير أوي.. أحتفظ باسمه مؤقتًا.. إني أتفاوض معك حول بيع سينما مُرجانة.. هو مهتم جدًا بالمكان والموقع.. وتعليماته أن أقدم لك شيكًا على بياض نظير إتمام الصفقة.

كانت السينما هي التخمين الأخير في عقلي، وقد طردت الفكرة فورًا لأنني لم أكن أظن أن أحدًا يهتم بمكان يحتاج إلى تجديدات ضخمة، ليعود كما كان، هناك سينمات كثيرة مغلقة، وفي مواقع أفضل، يمكن أن تسبق مُرجانة في مجال الاستثمار والبيزنس.

قلت بصوت محايد تعلمته من المترو موريس:

- السينما مغلقة من سنوات.. ومحتاجة شغل كتير.. وكنت بافكر أفتحها من جديد.. أو تكون مركز ثقافي كدة.

- شوف.. "إحنا" برضو مش بعيد عن الثقافة.. والمكان كله هيتغير لما تتم الصفقة.. فيه تصور كبير للمنطقة.. ممكن كمان نعمل أكتر من قاعة عرض.. ومين قالك إن السينمات التانية المقفولة مش في دايرة اهتمامنا؟

شعرت لحظتها بقلق أجهل مصدره، ربما كان السبب فيه طريقة كمال الناعمة، التي تحمل معنى الإغواء، والتي جعلتني أتصور أنه يريد أن يشتريني، لا أن يشتري السينما، يقوم بمهمته بالنيابة عن رجل أعمال كبير غامض، يتابع أنباء السينمات المغلقة، ويهتم بشرائها، وإعادة تجديدها.

الحكاية كلها مزعجة، ولكن مريم حدثتني عن حكاية كهذه، ورغم أنني لم أقرر بعد مصير مُرجانة، أو أي شيء، فإن فكرة إزالة القديم، وبناء مشروع جديد هددت شعوري ببعض الاستقرار، ولماذا تكون مُرجانة بهذه الأهمية التي تجعلهم يطلبون أن أحدد ما أشاء من أرقام ثمنًا لبيعها؟

لجأت إلى الدعابة للتخلص من القلق، فقلت ضاحكًا:

- بس كدة انتوا هتشتروا السينما بالعفريت اللي فيها.

لم يشاركني كمال الضحك، بل لمحت على وجهه بوادر غضب قادم، لعله وجدها نكتة سخيفة تحمل معنى السخرية، فانتقل صوته إلى نغمة جادة وصارمة -عدوانية تقريبًا- غلّفت حديثه منذ تلك

اللحظة، وحتى نهاية اللقاء.

قال وكأنه لم يسمع كلماتي وضحكتي:

- خد وقتك.. ده عرض.. اقبله أو ارفضه.

اتجه إلى المكتب، وفتحه مدعيًا البحث عن بعض الأوراق، وتركني أشرب قهوة بلا طعم، ومطارَدًا بأفكار مشوشة، استقرت منها فكرة غريبة عن عقاب الرفض، في مقابل ثمن الشراء، الطريقة التي تحدث بها كمال استدعت من جديد صورة رجال المافيا.

عاد كمال إلى مكانه بجواري، وواصل كلامه:

- جدك (بدلًا من جد سعادتك بالنغمة القديمة) الله يرحمه ما كانش متحمس لعرضنا.. ولا كان عايز يشغّل السينما.. وإحنا قدّرنا ده طبعًا لظروفه النفسية.. بس أعتقد الوضع مختلف دلوقتي.. والسينما حالتها صعبة.. حد قالك إنها كانت لفترة مليانة بالزبالة.. كل البيوت اللي حواليها كانت ترمي مخلفاتها من الشبابيك على المكان المفتوح.. شيء مش حضاري بالمرة.

انتهيت سريعًا من الفنجان، وكأنني أتخلص منه، ومن صاحب المكتب، ووقفت مادًا يدي للمصافحة، فتأخر كمال في مد يده، ولكنه أمسك بيدي أخيرًا، مكررًا الرسالة التي يحملها:

- خد وقتك في التفكير.. شيك على بياض.. المكان هيكون حاجة تانية.. إحنا مش بعيد عن الثقافة والترفيه.. بس بطريقة تناسب العصر.. مين ما يحبش السيما.. وبدل القاعة عدة قاعات!

- مفهوم.. فرصة سعيدة.. مضطر أمشي.

سار متثاقلًا معي نحو الباب، تسلّمني مدير مكتبه في اتجاه باب الخروج، تجاوزت السيارة المرسيدس في مدخل البناية، وسرت وصولًا إلى أقرب كشك، ابتعت منه مناديل صغيرة، لتجفيف بعض العرق، وأخذت تاكسي إلى وسط البلد، قررت أن أمُر على مكتب المتر موريس في التوفيقية، أعرف أنه يسهر حتى الثانية عشرة مساءً.

في التاكسي، كان السائق يثرثر حول الجو الحار، والدروس الخصوصية للأولاد، ويحدثني بحماس عن شريط جديد "مكسّر الدنيا" لولد جديد، ثم وضع الشريط في مسجل السيارة، فانبعثت أغنية صاخبة، وسمعت صوتًا يحتفل على طريقته الراقصة:

"بيني وبينك خطوة ونص.. ولا بتسلّم ولا بتبص.. اسأل عنا.. يا اللي شاغلنا.. أعمل إيه لأجل إنت تحس".

علّق السائق:

- شعبي شعبي يعني.

لم أرد، ولكني ابتسمت وأنا أستمع إلى عبارة "أعمل إيه لأجل إنت تحس"، وأضفت بصوت عالٍ وسط آثار دهشة السائق:

- فعلا أعمل إيه أنا؟

لم يكلمني السائق حتى مكتب المتر موريس، ولم تحتفظ ذاكرتي التائهة من أغنيات الشريط، إلا بمطلع أغنية "الخطوة ونص".

توقعت أن يشاركني المتر موريس حيرتي ودهشتي، وأن يفسر لي

علاقة المحامي الشهير بالسينمات المغلقة، أو أن يعطيني معلومات عن رجل الأعمال الغامض، ولكنه تجاهل كل ذلك، وسألني عن قراري بشأن سينما مُرجانة.

قلت منفعلًا:

- يا متر.. أقرر إزاي قبل ما أفهم؟ أنا جايلك أفهم مش آخد قرار.. لو عندك معلومات نوّرني.

- ما عنديش حاجة مؤكدة.. مريم بس كلمتني عن عملية شراء دور العرض.. يمكن هية تفيدك.. بس أنا كمان عايز أفهم إنت بتفكر إزاي؟ ما حدش هياخد حاجة غصب عننا.. مهم أوصلّك المعنى ده.. لإني حاسس إنك قلقان.

ضغط المتر على كلمة "قلقان"، فترجمتها بمعنى "خائف ومرعوب". كنت كذلك بالفعل، ولكني سرعان ما استعدت بعض الفتور واللامبالاة، شكرت المتر من جديد، وتذكرت أنه يعرف العرض القديم الذي رفضه جدي، وعن طريق كمال عبد الله أيضًا، لذلك لم يشعر بالمفاجأة مما قلته عن المقابلة.

أول ما فعلته عند العودة إلى الشقة، هو فتح أجندة الذكريات، وعلى صفحة بيضاء وبحروف كبيرة جدًا كتبت عبارة جدي التي قرأتها في ورقته الوحيدة:

"لا شيء يذهب.. لا شيء يموت".

في تلك الليلة، هاجمني لأول مرة كابوس جديد: أبي يصفعني، ويهيننني، وأمي تتفرج، يقول لي غاضبًا: "يا حيوان.. تنام مع الشغالة

قدام بنتها!".

أبكي متلفتًا حولي، فأجد باتعة عارية، وبجوارها بطة ماسحة الأحذية.

في نفس الليلة، توهمت أنني سمعت صوتًا يصرخ، وأن يدًا قد أيقظتني من النوم.

-٦-

تحت القمر

كانت ليلة مقمرة لا تُنسى، اجتمعت فيها الشلة في سينما مُرجانة، بترتيب مريم، وبحضورها مع أخيها فادي موريس، وأعضاء الشلة سمير توفيق، وفاطمة زاهر، وصبري البنا، والسيد عزمي، وأنا، طلبت من عم فرج، ومن باتعة أن يكونا معنا، لزوم تلبية الطلبات، والونس، والمشاركة الفعلية في المكان.

لم نختر أن يظهر قمر ١٤ خلف شاشة السينما البيضاء، فيمنحنا جوًّا شاعريًا أسطوريًا، خارج الزمان والمكان، ولكن هكذا كان، اتصلت بي مريم قبلها بيوم، وقالت إن اللقاء سيكون في العاشرة مساءً، طلبت، بالإضافة إلى كلامها السابق عن الشاي والكراسي، إضاءة غامرة، تليق بالحدث التاريخي، وقالت إنها ستحضر عشاءً مفتخرًا، كبابًا وكفتة، على حسابها، ولم تمرر العزومة دون تعليق، قالت: "عزومة خسارة فيك، بس مش خسارة فيهم، ولا في العفريت، ولا في عم فرج".

طلبت من فرج وباتعة إلغاء فكرة الكراسي، لأنها "ما تسترش ومتكسرة"، وفرش السجاجيد التي اشتريتها على الأرض، على أن يكون ذلك في المسافة بين شاشة العرض، وأول المقاعد في صفوف السينما، أي إن الشلة المحترمة ستجلس تحت القمر، وفوق العفريت الصارخ.

مثل زفة عريس، توقفت أمام سينما مُرجانة سيارتا تاكسي،

جلس في مقاعدهما أعضاء الشلة، قسموا أنفسهم إلى فريقين: مريم وفادي وفاطمة في سيارة، وسمير وصبري والسيد في سيارة، وكان السائقان سعيدين بالزفة، وبحالة المرح والضحك التي وصل ضجيجها إلى الشارع، وتشارك الجميع في إخراج شنط بلاستيك، فتنت رائحتها بلحوم مشوية.

حاسبت مريم على أجرة التاكسي، وقلت في مكر:

- يا هلا يا شباب.. مين بيحضن ويبوس ومين لأ؟

قال فادي:

- كله قسم البوس ما عدا فاطمة.. مش هينفع مع الحجاب.

تبادلنا السلام والأحضان والقبلات، وصافحتني فاطمة بسعادة صادقة، وحرارة أكيدة، لم تكن محجبة طوال سنوات دراستها في كلية الآداب بقسم اللغة العربية، بل كنا نسميها "نزار هانم" لأنها أصدرت ديوانًا جريئًا، يمتلئ بالغزل في مفاتن الرجال، ردًا على غزل نزار قباني في مفاتن النساء، صحيح أنها لم تكتب اسمها على الغلاف، ولكننا جميعًا كنا نعرف أنها أشعارها، كانت تقول دائمًا إن حرية الكتابة أول خطوة في حرية المرأة، والتعبير عن مشاعر النساء بصدق، قيمة جمالية في حد ذاتها.

قلت مخاطبًا الجميع:

- أنا لغيت فكرة الجلوس على الكراسي اللي اقترحتها مريم، هنقعد على البساط.. قدام شاشة السينما بالضبط.. وتحت سبوت من نور القمر.. طفينا اللي حوالين الدايرة.. تقريبًا هنقعد فوق راس العفريت.

قال السيد عزمي:

- ربنا يستر وما نقعدش فوق حاجة تانية.

انتقلت عدوى الضحك من فرد إلى آخر، حتى فرج وباتعة أعجبتهما القفشة وإيحاءاتها، عزّفتهما بالشلة، كانت ليلة استثنائية، وتستحق كسر كل القواعد.

بانت السعادة على وجه سمير توفيق ونحن ندخل إلى الصالة الواسعة. كان عاشقًا للأطياف، ولم يفكر قط أن صديقًا له سيكون مالكًا لدار عرض. ظل رأيه دائمًا أن السحر يعشّش في أي مكان يعرض أفلامًا سينمائية، فكيف الحال لو كان المكان مكشوفًا، وقريبًا من النيل، ويحمل اسمًا أسطوريًا، حبيبة علي بابا؟

هذه بالتأكيد مغارة الأسرار، ولا تنقصها سوى عبارة "افتح يا سمسم".

بعد أن جلسوا في شكل دائرة، قلت متفاخرًا:

- هاعملكم جولة صباحية في يوم تاني عشان تشوفوا بقية أجزاء المكان.. بس دلوقتي وقت الأحلام.

نظرتْ إلى صبري البنا، فوجدت وجهه قد تحول إلى العبوس الشديد، بعد أن كان سعيدًا ومنتشيًا، قالت لي مريم في التليفون ألا أنزعج من تقلبات صبري، "هو بعافية شوية بس بيحبك"، خريج كلية التجارة المتفوق، الذي لم يعيّنوه معيدًا، سافر للعمل في أوروبا، وعاد مفلسًا ومديونًا، قدّم في كل المسابقات، من إعلانات مذيعي ماسبيرو، إلى امتحانات الملحقين الدبلوماسيين، ولكنه فشل في كل

الامتحانات، عالجه لفترة قصيرة صديق من الأطباء، ولكن صبري غير منتظم في تناول العلاج، ويمر بفترات فرح عارم، وحزن قاتل، بالتبادل، ولكنه يصبح أفضل عندما يرى أعضاء الشلة.

فتحت مريم وفاطمة أكياس الطعام، وفاحت رائحة الكباب والكفتة، حرص الجميع على دعوة فرج وباتعة للأكل معنا، وافقا رغم تمنعهما في البداية خجلًا واغترابًا.

لفترة قصيرة، لم نكن نسمع سوى بعض الضحكات، وأصوات مضغ الطعام، وقرقعة زجاجات المياه المعدنية،وفتح زجاجات المياه الغازيه، حتى سمعنا أول تعليق من سمير:

- دي أغرب عزومة حضرتها.. المستضيف مشارك بالسجاجيد.. وبعدد واحد عفريت.

كانت فاطمة صاحبة أعلى الضحكات، لم تتغير رغم اختلاف الهيئة، ورغم هالات سوداء ظهرت تحت عينيها، "نزار هانم" ما زالت تتمتع بالحيوية، قالت مريم في التليفون إن فاطمة ليست سعيدة، قلقها وإحباطها يترجمهما خوفها على ابنها الوحيد أحمد، وتُكرر دائمًا أنها ستفشل حتمًا في تربيته.

قال سمير:

- نتكلم جد شوية يا جماعة.. فعلًا المكان ساحر.. ولو فؤاد ما وافقش على إعادة ترميمه وافتتاحه هنحجر عليه.. ده سحر وإلهام.

ثم وقف، وأشار إلى الشاشة قائلًا:

- ده مش جدار أبيض يا بني ظلط.. ده ستار وراه أطياف عايزة

تخرج وتتحرر.. تقريبًا العفريت مندوبها من أجل الحرية.

قال السيد عزمي:

- والله ما هيودينا في داهية إلا المبالغات والأحلام المعلقة في الهوا.. يا أسطى سمير.. اللي بيكلمك ده خريج آثار قسم ترميم.. موسوعة في التاريخ والفن القديم.. اشتغل جرسون في فندق شهرزاد.. وبيّاع في كافتيريا نعمة.. وانتهى مدرس حصة بالقطعة في مدرسة في الوايلي.. يعني عفريت رسمي زي عفريت فؤاد.. و...

قاطعته مريم بسرعة:

- يعني ما نحلمش كمان.. ده إحنا نروح نموت أحسن.. أو كما قال أحد أبطال رواية "أفراح القبة" اللي بحبها: "إني أدمن الحلم كما يدمن أبي الأفيون".

حملق عم فرج في مريم، ضحك عندما سمع كلمة "الأفيون"، كان ينظر إلينا هو وباتعة، وكأننا ممثل لاعبي السيرك المجانين.

تدخلت فاطمة بهدوء:

- سينما مُرجانة مش حلم.. ده مكان ملموس قاعدين فيه.. وعمالين ناكل ونضحك... واللي بعيد ده القمر بتاعنا.. وده اسمه فرج.. ودي عيون ودي مناخير ودي لا مؤاخذة مؤخرة.. ما فيش أحلام ولا تهيؤات!

التقط سمير الخيط، وقال بصوته العميق:

- ومش كدبة أبريل.. أنا باتعهد قدامكم أرتب برنامج حفل افتتاح

سينما مُرجانة.. أعرف عاطف وخان وداوود وبشارة والميهي.. هادعيهم وهييجوا.. وأعرف اللي يعرف يجيب عادل إمام كمان لو حبيتوا.. ما فيش أوهام.. هنجدد السينما ونفتتحها لو وافق الوريث الأعظم.

كانت مريم توزع مناديل معطرة على الجميع لزوم تنظيف الأيدي، وفتحت منديلين بنفسها لفرج وباتعة، اللذين ظلا مندهشين مما يسمعان ويشاهدان.

شعرت أنني يجب أن أتدخل، فقلت:

- الواقع صعب.. والحلم ممكن يكون هروب وكدب.. بس سينما مُرجانة مش خيال.. وإنتوا شايفين بنفسكم.. وإحنا هنفتحها عشان نفسنا مش عشان حد تاني.. ببساطة عايزين نعمل كدة.. وشايفين المكان حلو.. اعتبروه مكان لتجميع الشلة.. جدي كان بيعمل كدة مع صحابه.. بس القعدة كان فيها دخان وبيرة...

نكس فرج رأسه، وجاء صوت صبري متعبًا وحزينًا:

- ليه كل أحلامنا بتتحول لكوابيس؟ حد يعرف...

خيم صمت ثقيل، قطعه تعليق فادي، بعد أن ثبت منظاره الطبي فوق عينيه:

- والله سؤال وجيه يا صبري.. بس مش كل أحلامنا يعني.... نقول نسبة كبيرة منها...

أضاف صبري:

- إنت مثلًا كنت تحلم إن آخرة الدراسة شيفتات القصر العيني.. والفشل في فتح عيادة خاصة!

- ما كنتش فاكرها جنة.. بس أعترف ما تصورتش كمان إنها بالسوء ده.. يمكن يتحقق الحلم في عقد في مستشفى في الخليج.. فؤاد نجح وحقق أحلامه متهيألي.. يعني بنستبدل الحلم ونروضه.. مش بنلغيه يا معلم صبري.

لم أشأ التعليق، ولكن كلمات فادي عن تحقيقي لأحلامي بدت غير صحيحة، بالنظر إلى شعوري بالوحدة والفراغ، وغياب طعم الأشياء، والشعور القاهر بالعجز، والإحساس بعبثية كامنة، لا سبيل إلى فهم أسبابها.

تأملت مؤشر الرضا بين الحضور، فوضعت مريم وسمير وفادي وفرج وباتعة في فئة بعيدًا عنا، رجحت أنهم الأكثر رضاءً، دون أن نصِفهم بالسعادة الكاملة، وأعجبني أن مؤشر الرضا الخيالي قد أذاب الفوارق بين الطبقات.

عاد سمير إلى التعليق:

- أنا أحيانًا باقول والله إحنا كويسين رغم الحالة اللي إحنا فيها.. دي أقل حاجة ممكن تحصل لبلد لغت حصة المزيكا.

نظر فرج إليه فاتحًا فمه، فقال سمير وكأنه يرد عليه:

- أيوة.. كل اللي بيحصل من فساد الذوق سببه إلغاء حصص النشاط والفنون.. بنطلّع وحوش آدمية ما بتحسش.. حافظة بس مش فاهمة.. يا راجل ده إحنا عندنا ناس حرّمت بيع الخيار خوفًا

من فتنة النساء!

سمعنا من جديد ضحكة فاطمة الصاخبة، استطرد سمير:

- في عز الفوضى دي.. والتجعير والنشاز.. تخرج بنوتة تغني بإحساس وتقول: "وكفاية تكون إنسان في زمان فيه طيبة القلب بتتعيّب"، وتقول: "لاليلي لالي".. وفي عز أفلام المقاولات ومعامل السينما البايظة.. داوود بيقدم السنة اللي فاتت أسطورة الشيخ حسني.. وتحفة اسمها سيد مرزوق.. وخان بيقدم "فارس المدينة" اللي بيغير حياته على قد ما يقدر.. وفي عز المسرح الكباريه.. بتظهر "وجهة نظر" و"بالعربي الفصيح".. الحياة لونها رمادي.. لا أبيض ولا إسود، يا بني ظلط.

قال السيد عزمي:

- كان لازم تبقى محامي مش ناقد.. بس برضه ده ما يمنعش إن الأسود أكتر.. يا راجل أنا مش لاقي في الفصل تلميذة فيها الرمق.. يا سمير البنات بتعاكسني وأنا اللي بارفض.. مش عشان عامل فيها طه الفشني.. لكن عشان أنا مش وسخ أوي كدة.. وعشان برضو عندي أخت تلميذة.

فاطمة وقد ارتفع صوتها:

- يمكن سمير شايف الحياة دراما.. مشروع فيلم وسيناريو.. فرصة كتابة وفن.. بس صبري والسيد دفعوا التمن من صحتهم ودمهم.. إحنا محتاجين الاتنين.. الخيال والواقع مع بعض.

قالت مريم، عاشقة نجيب محفوظ:

- على فكرة المناقشة دي بتقول إننا محتاجين مُرجانة، قبل ما يحتاجها الناس للترفيه.. مُرجانة كدة هتبقى زي قهوة قشتمر اللي جمعت أصدقاء محفوظ من البداية للنهاية.. مُرجانة هتكون ساحة للفضفضة.. لو سكتنا وما قعدناش مع بعض هنموت.

صفق صبري فجأة بنشوة مبالغ فيها، وقال صارخًا:

- عظمة على عظمة والله.. ده اللي بيسموه "فصل الخطاب".

عادت بي الذاكرة، وقد اجتمعنا في أثناء الدراسة، أمام تمثال مختار، الكائن أمام الجامعة، ليلة مقمرة أيضًا، وصبري يصفق لأبيات ألقتها فاطمة زاهر، ويؤكد أنها ولادة بنت المستكفي موديل القرن العشرين، وسمير يحدثنا عن فيلم "الطبلة الصفيح"، ومريم تحكي عن لقائها الأخير مع أحمد بهاء الدين، والسيد عزمي يقول إنه يعرف دواء أبو الهول، وكان تمثال مختار ينظر إلينا في سعادة.

تمدد صبري رافعًا يديه، وناظرًا إلى القمر، وتربعت فاطمة، وأخذت تهندم الحجاب الأحمر فوق رأسها، وقام فرج، وبعده باتعة، لإحضار أكواب الشاي، والترمس الكبير الذي يحتوي على الماء الساخن.

كانت لحظات صمت ممتلئة بالذكريات، أدركنا أن الحوار الضاحك يتحول تدريجيًا إلى الشجن والحزن، ولكني لا أظن أن أحدًا قد ندم على الحضور، أو أنه سيتردد إذا دُعي في مرات قادمة.

كنا في حاجة إلى مرايا لكي نرى أنفسنا من الداخل، وكانت الشاشة البيضاء مثل مرآة كبيرة، نطل منها على أنفسنا.

همست في أذن مريم بجواري:

- الناس دي حلوة بس تعبانة.

قال فادي بالقرب منها:

- إنت تقريبًا بتوصف البلد كلها.. ده إنت بقيت فيلسوف.. هاقولك كمان إضافة لجملتك الحلوة: فيه جيل بيروّح.. وجيل مش عارف يتولد.

قال سمير:

- شكلك كدة شفت "آيس كريم في جليم" في سينما ريفولي.. فيلم غريب وبسيط.. تحس إنهم بيهزروا ومبسوطين.. وفي النهاية تكتشف إنها حكاية جيل عايز يخطف الميكرفون لإن ما فيش حد عايز يديهوله.

قال صبري ناظرًا إلى السماء، وكأنه يخاطب نفسه:

- السنة اللي فاتت مات آية الله العظمى محمد عبد الوهاب.. وبليغ عيّان وبيودّع.

كان صبري من أفضل السمّيعة في شلتنا، لا يذكر اسم معشوقه عبد الوهاب إلا مسبوقًا بلقب "آية الله العظمى"، ويرى أن هؤلاء العظماء أحق باللقب من رجال الدين في إيران.

جاء وقت الشاي، وقام فرج وباتعة بدوريهما كمضيفَين كريمَين، لاحظت أن فاطمة تتمعن في هيئة باتعة، وتضبط التناقض بين جلبابها وطرحتها الأسودين، وبين مشيتها المياسة، ولكنها لم تعلق قط، أو ربما تحتفظ بالتعليق لتقوله لي "على جنب"، أعرف فاطمة جيدًا، ومتأكد أنها لم تتغير.

الزعيمة مريم قالت لتأخذ الحوار إلى مسار عملي:

- زي ما إنت شايف يا فؤش.. كلنا متحمسين ومساندين.. وهيساهم كل حد باللي يقدر عليه.. عايزها كمان سينما صيفي وشتوي يبقى خير وبركة.. وعايز تستضيفنا في الخميس الأول من كل شهر زي أغنيات الست ما فيش مانع.. بس الكباب والكفتة عليك المرة الجاية.

أضاف فادي مستكملًا:

- أما حكاية العفريت دي.. فمع احترامي لعم فرج أديك شفت العفرتة على أصلها.. إحنا الأشباح ذات نفسها.

مثل الذي عثر على كنز، هتف سمير توفيق:

- والله فكرة رواية حلوة.. الأطياف ممكن تتحول لأشباح وتتجول في قاعة السينما.. وأصحاب السينما وزملاؤهم يتحولوا لأطياف.. ويدخلوا الشاشة.. ويدور الصراع بين الطرفين.. ثم يا أخي مين بيتفرج على مين: المتفرجين بيتفرجوا على أبطال الفيلم.. ولا أبطال الفيلم كمان بيتفرجوا على الجمهور.. هَمّ مالهمش نِفس يعني.

سمعت قهقهة عم فرج المزعجة، ولكن خيالات سمير أعجبتني جدًا، كان يجمع دائمًا بين الواقعية والخيال، لمحت لأول مرة نظرات مريم المصوبة نحوه بوله وإعجاب، توقعت لشدة توترها أن تحتضنه، وتقبله أمام الجميع، لا شك أن شيئًا ما يتبلور بينهما دون أن نعرف، لعله تبلور بالفعل، مريم لم تقل سرها لأحد، حتى للمتر موريس.

قلت صادقًا:

- لو ينفع نسجل العك اللي بنقوله ونفرغه هيعمل كتاب.

قال سمير بحماس:

- والله فكرة حلوة.. ونسميه ثرثرة على راس العفريت.. تأليف وفضفضة وتخاريف جيل التسعينيات.

جاء صوت صبري مبتهجًا وسعيدًا هذه المرة:

- بادور على عروسة تقبل واحد مكتئب نص الوقت.. بس هاعوضها النص التاني.. هتقع من الضحك.

أضاف السيد عزمي:

- أنا ضد فكرة الزواج والخلفة في هذه الظروف.. ولجيلنا بالذات.. الجواز وإحنا بالحالة دي قلة أدب.. وقلة ذوق وقلة عقل.. أنا عايز واحدة أتسرّى بيها...

ابتسمت فاطمة وقالت:

- أنا عايزة أعرف أربّي أحمد صح.. بس واثقة إني مش هاعرف.. أنا ما تحققتش فإزاي هاعرف أقوله اتحقق.. في الغالب هاطلّع فيه عُقدي.. أنا اتنين مش واحدة.. نزار هانم وسكرتيرة السيد رئيس الحزب.. باكتب وأتغزل في جسم الراجل.. وباعرف أعمل طشة الملوخية لجوزي ابن عمي.. عايزة أعرف أرجع واحد صحيح.. يا شاعرة يا داعية في برنامج ديني.. إنما الشحططة دي هتجنني!

قالت مريم:

- نسمع كمان فرج وباتعة.

قال فرج:

- عايزكم بس تصدقوني في موضوع العفريت.

وتمنّت باتعة الستر والصحة.

كان الاثنان سعيدين بالكلام وبالصحبة وبالونس.

قررت لحظتها أن الوقت قد جاء لإبلاغهم بحكاية كمال عبد الله، فقلت بهدوء:

- على فكرة.. فيه حاجة حصلت من فترة.. استدعاني محامي مشهور.. وقالي إنه وسيط ومكلف من رجل أعمال ما قالش اسمه لشراء مُرجانة.. قال إنه هيعملها عدة سينمات فخمة.. عندهم اهتمام عمومًا بالسينمات المقفولة في المناطق المهمة.

لم أتوقع أن يُحدِث كلامي هذا الاهتمام، حتى صبري البنا اعتدل من نومته، وجاءني صوت مريم معلقًا:

- دي معلومة خطيرة كان لازم تقولها قبل ما نقعد وناكل أصلًا.. دي حملة لشراء السينمات القديمة وقفلها.. مش لتحويلها لدور عرض فاخرة يا عبيط.

قال السيد عزمي:

- يا ديني على نظرية المؤامرة.. وطبعًا الهدف تحويلها لمعسكرات لاستقبال العائدين من أفغانستان.. وعمل قنابل بشرية تنفجر في الناس وفي الأنظمة.

لأول مرة أرى مريم بهذه الثورة، قالت بصوت عالٍ وهي تنتفض:

- تعرف تبطل تفاهتك واستخفافك وعدميتك دي.. اللي ما عندوش معلومات يقول عدس.. أنا باتابع القصة دي في القاهرة وإسكندرية.. والحكاية تشمل شراء أي مراكز فنية أو ثقافية أهلية.. وصلت لمعلومات بس مش مكتملة.. في الواجهة محامين زي اللي بيتكلم عنه فؤاد.. بس دول وش القفص.. وجوة القفص ثمار معفنة.

قال سمير:

- المهم إنت قلتله إيه يا فؤاد؟

رددت بسرعة:

- مشيت وسبته.. حسيت كدة إن فيه تهديد جوة كلامه.

قال صبري موجهًا كلامه إلى سمير بالذات:

- عايز دراما يا سيدي.. طب خد.. ده إحنا هنشوف صراع إغريقي.. أنصاف آلهة في مواجهة شخصيات تراجيدية محكوم عليها بالموت.

قالت فاطمة:

- شبح تحت الشاشة.. وشبح ورا المحامي.. البلد بقيت بيت أشباح وإحنا مش حاسين؟

فادي:

- الموضوع مقلق.. بس مش مخيف.. هنعمل شغلنا عادي.. متأكد إن مريم هتكتب وتحاول تنشر.. وأنا عليا تنظيم ندوة في الحزب ونرجع أمجاد اليسار بالمرة...

قلت بصوت محايد:

- كلامي مش هدفه الانزعاج.. ده دليل على إني خلاص اعتبرتكم مجلس إدارة مُرجانة.. ده بند باعرضه عليكم.. ممكن تعتبروه للعلم أو لأخذ رأيكم.. المهم ما فيش حاجة هتحصل تخص مُرجانة مش هتعرفوها.. من عفريت الشاشة لعفريت المحامي...

رغم هذا المنطق الظاهر، كنت أعرف داخليًا أنني قلت موضوع كمال حتى أتخلص من القلق والخوف، كنت أريد كلمات تشجيع ومساندة، وشعورًا ولو متوهمًا بالأمان، كنت خائفًا من وحدتي وأفكاري، وأريد أن أُسكِت صوتًا خافتًا، يفترض أنني سأهرب في النهاية، وسأعود إلى دبي، بعد التوصية بالتخلص من ميراث الأشباح، الذي أفسد أيامي الماضية.

شعرت بتأنيب الضمير، لأن الشلة لم تعد كما هي بعد أن سمعت بالخبر، سادت حالة من الفتور والضجر والتململ، كانوا في انتظار من يبدأ بالاستئذان حتى يغادروا معه، وبدأت مريم كالمعتاد.

على باب السينما صافحتهم بحرارة، وسألت نفسي: "هل يعودون لو دعوتهم مرة أخرى؟".

قالت مريم:

- لسة لينا كلام.. على تواصل.. نام كويس واهضم اللي طفحته.

حاولت أن أكسر رتابة الوداع، فقلت لسمير:

- مش هتدعيني لعروض السينما في الأتيليه.. أنا فاضي.

قال:

- تعالى يا خويا.. هنعرض الحد الجاي الساعة ٧ فيلم "الطبلة الصفيح".

- هو إنت ما عندكش غيره؟ ده أنا حفظته من كتر ما شفته بره وجوة.

- يمكن بعرضه لإن بطله أوسكار بيصرخ ولا حد سامع.. زي عفريتك كدة.

نجحوا أخيرًا في العثور على عربتَي تاكسي، ووزعوا أنفسهم بنفس طريقة القدوم، ولكني لاحظت أن مريم عادت للمقعد الخلفي مع فاطمة، وتركت فادي في المقعد الأمامي.

قبل أن أغادر مُرجانة، شكرت فرج وباتعة، ضغطت على يد باتعة، ولكنها غادرت مع فرج، بعد إغلاق السينما.

ظللت مؤرقًا أتقلب على فراشي، أفكر في كل ما تكلمنا عنه، قلت لنفسي إن اللقاء كان ممتعًا في المجمل، وإنني يجب ألا أخذل هؤلاء الناس الحقيقيين، لأول مرة تحدثنا عن الأحلام، ولأول مرة عرفنا الفضفضة، تعرينا أمام بعضنا، وصرخنا في بعضنا، بدلًا من أن نموت قهرًا.

أقنعت نفسي أن مُرجانة ليست سينما، ولكنها الحلم المفقود الذي عثرنا عليه وسط العاصفة، فإذا تخلينا عنه، فنحن المسؤولون عن ضياع الفرصة الأخيرة للنجاة.

اقترب موعد طلوع الفجر، وما زلت مؤرقًا، أرجعت ذلك لدسامة

الأكلة، ولأكواب الشاي المنبهة، فكرت في النزول إلى الميدان، الذي لا يعرف النوم، مجرد تمشية ترهق الجسد، فأعود متعبًا لأنام، ولكني وجدت الخروج فكرة سخيفة.

وضعت المخدة فوق رأسي، ولكني لم أستطع النوم، أضأت كل أنوار الشقة، واتجهت إلى مكتب جدي، أخرجت أجندة الذكريات، اخترت قلمًا جافًا أحمر، وشرعت في كتابة عبارة واحدة خفرت عميقًا في عقلي، اخترتها من بين كل عبارات الثرثرة والضحك والاعتراف والشجن والنقار والعبط والخوف والقلق والكلام الفارغ و"المليان".

كتبت بخط كبير:

"ليه أحلامنا بتتحول لكوابيس؟".

-٧-

همس ورؤوف وعلم الدين

ظننت أنني أعرف الناس، وأتوقع تصرفاتهم، ولكني أكتشف كل يوم، في هذه المدينة العجيبة، أنني لا أعرف البشر، ولا أعرف نفسي.

في ثلاثة أيام متتالية، التقيت الماضي القريب، والماضي البعيد، ربما كانت جرعة أكثر مما أحتمل، ولكني أدرك الآن أنها كانت ضرورية لبعض الإفاقة، ولكي أتأكد أن عفريت عم فرج ليس أغرب ما واجهني في رحلة العودة.

كانت أيام الأسبوع متشابهة، بخلاف يوم التنظيف، عندما تحضر باتعة، ونعيش أوقاتًا للأمان المؤقت، لقاءات جسدية تقتل القلق، ولكنه يعود من جديد، فنبحث مرة أخرى عن لقاء قادم، مثل المخدر الذي ندمنه.

لكنها صارت أكثر رقة وجمالًا، أو قد أكون رأيتها كذلك، قالت مرة إنها تحب ليلى علوي، ولذلك تتمنى أن نضيفها إلى قائمة "المعازيم"، في يوم إعادة افتتاح السينما، فوعدتها خيرًا.

لم أكن أريد أن أذهب إلى الأتيليه يوم عرض فيلم "الطبلة الصفيح"، لا معنى لمشاهدة فيلم أحفظه بالمشهد، ولست شغوفًا بلقاء متحفي وفناني الأتيليه، بعد طول غياب، ولكن الأوقات الخاوية، وتليفونًا من مريم، ثم تليفونًا آخر من سمير، بضرورة الحضور "عشان نشوفك"، كل ذلك دفعني للنزول، والذهاب إلى الأتيليه.

مررت على بطة، التي استقبلتني بسعادة، ورغم أنها استخدمت العنف لفتح علبة الورنيش السوداء، ورغم أنها شتمت وسبّت العلبة وأمها وأباها، فإن الأمور سارت معها بسلاسة بعد ذلك، ووجدت بطة مزاجًا لكي تدندن بصوت نشاز أغنية "لاليلي" لأنغام، كان صوتها مقبولًا عندي بكثير جدًا من التسامح.

اخترت المشي من شارع خيرت إلى ميدان لاظوغلي، ومنه إلى شارع مجلس الشعب، وشارع قصر العيني والتحرير، ثم دخول شارع طلعت حرب، ورغم ضجيج المحلات والمقاهي، التي تخلصت من خمول النهار الحار، فإنني لم أكن أسمع أو أرى شيئًا، كنت أسير ببوصلة داخلية لا شعورية، بينما انشغل بالي بالقرار الأخير لترميم السينما، ورفض بيعها، ووضع سيناريوهات لمواجهة من يريدون شراء المكان، ثم أعود إلى خانة الانتظار والترقب، واستشارة المزيد من الأصدقاء، مع أنني التقيت فعلًا بالزملاء الأهم والأقرب، ولكنها طبيعتي المترددة والقلقة، التي يسكنها خوف كامن ومتأصل.

استقبلني سمير وقادني إلى حديقة الأتيليه، حيث وُضعت شاشة بيضاء، وأمامها كراسي بلاستيكية صفراء، احتل معظمها شباب وبنات في سن صغيرة، كانوا يتبادلون الضحك والقفشات، وفي نهاية الحديقة وضعوا بروجتكور، سيعرض الفيلم المعلّب في شريط فيديو، قال سمير إنه حصل على الشريط من الدكتور رفيق الصبان، الناقد وعاشق الأفلام، والذي يمتلك مكتبة أفلام عالمية هائلة، ويحضر في كل رحلة سفر إلى باريس، شرائط فيديو لأفلام مختلفة من كل بلاد العالم.

جلست في الصف الأول، في أقصى الطرف، وبعد قليل كانت مريم تحتضنني وتقبلني، وتقول في حماس: "لك عندي مفاجأة.. همس هنا .. بتتفرج على المعرض .. وجاية بعد شوية".

نظرت إلى مريم بمزيج من الدهشة والفرح والاستنكار، لم أكن أتوقع ذلك، ولم أطلب لقاء همس، ولكني لا أخفي فرحة رؤيتها بعد سنوات، فكرت قلقًا فحزنت لأنني لم أرتب كلامًا، أعرف أن فرحتي لن تزيد في الغالب على دقائق، وستستدعي ألمًا عميقًا، وجرحًا لا يلتئم.

ما الذي يمكن أن أقوله لمن تركتني للزواج بأستاذي وأستاذها العجوز الأرمل؟ اختارت المصلحة بدلًا من الحب. حصلت على منحة من أكاديمية روما، وعادت بعد وفاة الأستاذ، ورثت عنه فيلا في المقطم، ومكتبًا هندسيًا ناجحًا، وسيارة بي إم دبليو، هكذا كتب لي المتر موريس في إحدى رسائله، عرّفته بها في سنوات الحب، كان رأي المتر المبكر أن هذه الفاتنة طموحها أهم من العالم كله، وعقلها أكثر فتنة من جسدها الجميل، قال المتر مرة: "همس دي مشروع جاسوسة دولية مثالية تتفوق على ماتاهاري".

لم أر الأطياف عندما بدأ الفيلم، كنت أستعيد ذكريات أول سنوات الدراسة، وسحر رؤيتها لأول مرة، فتاة ممشوقة القوام، ترتدي بنطلونًا جينزًا أرزق، وبلوزة حمراء، عيناها الواسعتان، وشعرها الأسود الطويل المنسدل على كتفيها، ورقبتها الطويلة، جعلتني أعتقد أنها الموديل، الذي نقل منه يوسف فرنسيس لوحاته الصحفية، وصوتها الناعم، واسمها الغريب المتفرد "همس نادي"،

جعلاها بالنسبة إليّ أقرب إلى أسطورة غريبة.

تعرّفنا بسهولة، ثم توثقت العلاقة بالمشاريع المشتركة، وبعض الرحلات، سعدت لأنها اختارتني من وسط حشد من المعجبين. حكت لي عن والدها المتفتح، خريج دار العلوم، الذي أصر على تعليم بناته الثلاث، همس ونجوى وهديل، في القاهرة، بعيدًا عن بلدهم في المنصورة.

كانت همس نجمة الدفعة، بارعة في الرسم، ومتفوقة في الدراسة، لا ينقصها الجمال، ولا الحضور، ولا قوة الشخصية، ولا الاستقلالية، ولكنها كانت تشعر في داخلها بنقص حاد، تعوضه بطوفان من الأكاذيب، التي اكتشفتها فيما بعد، أما في عز نشوة العشق، لم أكن سوى إمامًا للمعجبين، ولم أفسر حديث زميلاتها عن "فشرها"، إلا بأنه غيرة نسائية طبيعية.

مرة زعمت أنها قريبة سيف وانلي، وأن أصلهم من الإسكندرية، ثم اكتشفت أنها ليست من المنصورة، وإنما من قرية بالقرب من رشيد، وبعد أن فهمتها أكثر أدهشني أن ذكاءها، الذي يساندها في الدراسة، يخونها عندما تكذب، كان كذبها ساذجًا ومكشوفًا، ولكنها لم تكن قادرة على التوقف عنه، أراحني في النهاية أن أعتبرها مريضة، لو لم أفترض ذلك لكرهتها، وأنا لا أحب أن أكره همس نادي.

جاءت كارثة ارتباطها بالأستاذ العجوز، قبل مأساة مصرع أبي وأمي بفترة وجيزة، وساهمت الكارثتان في ضياع طعم الحياة، والتعويض بطاقة شغل وعمل، وشهوة جمع أموال تجعلني ثريًا ومستغنيًا، وباكتشاف أمان الجسد مع جنيفر.

خرجت بعد دقائق من عرض الفيلم، نظرت إليّ مريم بمكر، بينما ادعى سمير أنه منشغل بمتابعة صرخات أوسكار في الفيلم. في مدخل الحديقة رأيتها، كانت ترتدي جلابية ريفية ملونة لها كرانيش، تشبه الجلاليب الجميلة التي ترتديها المخرجة عطيات الأبنودي، كنت قد التقيت عطيات أكثر من مرة عند صديقها القديم المتر موريس.

بدت همس الجديدة أكثر امتلاءً، زادت خطوط الكحل الأسود حول العينين، وتوهمت أنني لمحت تجعيدة أسفل عينها اليمنى، ولكنه كان ظلًا رماديًا عابرًا، ولكن صوتها الخافت والناعم مثل ملمس القطيفة، ما زال يحتفظ بسحرها القديم.

تبادلنا التحية، كلمات رسمية مرتبكة ومتكلفة، لم أنطق اسمها، ولم تنطق اسمي، حاولت أن تدفعني لمشاهدة الفيلم، فلما أخبرتها أنني شاهدته من قبل، قالت بصوت أكثر خفوتًا:

- طيب ممكن نخرج سوا؟ توصلني بس لعربيتي.. راكنة قدام الأتيليه على طول.

سرت بجوارها مشوشًا بصورة لم أختبرها من قبل، لم نتكلم، ولم نحاول، أعتقد أنها كانت تعد بعض الكلمات، ولكنها ألغت النطق بها. أمام سيارتها الزرقاء، أخرجت من شنطة يدها كارتًا فيه عنوان مكتبها الهندسي، ثم كتبت شيئًا على ظهره بالقلم الجاف.

قالت:

- ده عنوان وتليفون البيت.. اعتبره بيتك.. تنورني.

أخذت منها الكارت بيد مرتعشة، دخلتِ السيارة، وانطلقت بها، عدت مشيًا إلى البيت، دون أن أودع مريم وسمير، كنت غاضبًا منهما، ربما لو عرفت بوجود همس، لاخترعت سيناريوهات أفضل، لن ينصلح ما انكسر، ولكن لقائي معها كان يمكن أن يكون أقل إيلامًا وقسوة، كانت -يومًا- جزءًا جميلًا من حياتي.

في اليوم التالي، ذهبت إلى شبرا، في رحلة جديدة لاكتشاف الماضي.

كنت قد سألت فرج بشكل مفاجئ عن أصدقاء جدي، فقال إنهم ابتعدوا من زمان، ومعرفته بهم سطحية، في الغالب ماتوا، باستثناء أستاذ القانون رؤوف أبو شهبة، هو الوحيد الذي يعرف عم فرج رقم تليفونه، كان الدكتور أقرب أصدقاء جدي بهجت، ولذلك أعطى رقم تليفونه لفرج من أجل الطوارئ والظروف، لم تنقطع التليفونات بين الدكتور وفرج في السنة الأخيرة قبل وفاة جدي، فقد كان الدكتور يسأل عم فرج عن تطورات حالة صديقه الأقدم والأعز.

أعطاني فرج النمرة، وهو يقول:

- يا رب يكون لسة عايش.

عندما اتصلت، جاءني صوت رخيم واضح الحروف، رغم وهن في نبراته لا يمكن إخفاؤه، بعد أن عرفته بنفسي، أخذ وقتًا طويلًا في الصمت والتفكير، ثم وافق أن يعطيني عنوانه في شبرا، قلت له إنني أريد أن أعرف أشياء عن جدي، وأريد أن أستنير برأيه فيما يتعلق بالميراث.

في شارع يتفرع من ميدان فيكتوريا، كانت بناية الدكتور تعيدني إلى شقتنا القديمة، التي تربيت فيها، والتي باعها جدي بموافقتي، بعد حادثة أبي وأمي. تأملت بلكونة دكتور رؤوف في الطابق الثالث، فظننت أنها بلكونتنا، التي كنت أطل منها على النائم فوق المسامير، وزوجته نافخة النار. رأيت في البلكونة طفلًا يشبهني، تخيلت ذلك، لأن الدكتور يعيش وحيدًا مع خادمه، هكذا قال لي عم فرج، وأضاف:

- مراته ميّتة من زمان.. والولدين متجوزين وعايشين مع أولادهم في ستة أكتوبر.

فتح الباب رجل أسود في الخمسين، يرتدي بدلة سوداء دون كرافتة، قادني في ردهة طويلة تنتهي بصالون أرابيسك فاخر. اصطفت على جدارين مستنسخات من لوحات عالمية، تعرفت من بينها على أعمال هنري روسو التي أحبها، ولوحة آكلي البطاطس لفان جوخ، ولوحة بيكاسو الشهيرة آنسات أفينيون، بينما شغلت الجدار الثالث صور للدكتور بالأبيض والأسود، في مراحل عمرية متعددة، ولوحات مُبَروَزة بإطارات ذهبية لشهادات الدكتور العلمية، ولشهادات التقدير والتكريم.

في المواجهة، كان الدكتور يجلس ممسكًا بعصاه، مطأطأ الرأس، فلما رفع رأسه، رأيت فيه نسخة من جدي بهجت، بوجهه الأبيض وشعره الأشيب الغزير، تقدمت مسرعًا لمصافحته، ولكنه تأملني صامتًا لبرهة، ثم مد يده قائلًا بصوت بطيء وعميق:

- أهلًا.. مواعيدك مظبوطة زي جدك.. كان دايمًا بيحكي عنك.

غادرنا الرجل الأسود، لإحضار قهوة طلبتها، لم يتوقف الدكتور رؤوف عن تأمل ملامحي، ولم أتوقف عن اختلاس نظرات سريعة غير مباشرة، فاكتشفت لأول مرة أن للرجل عينين زرقاوين. كانت ملامحه تكشف عن أصل أوروبي، أو تركي على أقل تقدير.

قلت بصوت هادئ:

- باشكر حضرتك على المقابلة.. جدي كان بيعتز بكم.. شرف كبير أزوركم حضرتك.

لم أتعود تنميق الكلام، فخرجت عباراتي ركيكة، لاحظت فجأة أن الدكتور مسح لعابًا يسيل من فمه إلى ذقنه، وأن تعبير وجهه جامد لا يتغير.

أضفت:

- مش عايز أعطلكم.. كنت عايز أسأل حضرتك عن ورقة كتب فيها جدي عن ست كان يعرفها اسمها فريدة.. وعن تحضير الأرواح.. وعن صرخات كان يسمعها.. كان اسمكم في الورقة.

صمت الدكتور رؤوف حتى توجست من أنه يفكر في طردي، لأنني أهذي أمامه بكلام مفككك، وغير مفهوم، ولكنه فاجأني بابتسامة لم أتوقعها.

طال الصمت والابتسام، ثم قال الدكتور:

- أنا أعرف جدك من لما كان عمرنا ١٨ سنة.. أعرفه بجد ومن جوة.. كان له مزاج فنان وشاعر.. دون أن يبلغ من الشعر أو الفن شأنًا كبيرًا.. وده كان سبب أزمته.. وجه مرض جدتك الطويل ووفاتها..

وحادثة أبوك وأمك.. وكمّلوا على الباقي من عقل بهجت.

- عارف إن السنة الأخيرة كانت صعبة عليه.. وكان بيرفض الزيارة والكلام.. بيقول بعض التخاريف.

رد الدكتور بسرعة:

- لا لا.. بهجت من زمان وهو تعبان.. السينما خففت شوية.. وإحنا كمان وشلتنا كنا بنحبه.. وخففنا عنه كتير.. لكنه كان مضطرب.. وبيتهيأله حاجات.. وبيسمع أصوات بتناديه.

- بس هو كاتب إنكم كنتوا معاه لما الصوت صرخ في ليلة أنس في سينما مُرجانة.. سمعتوا معاه الصراخ.

قهقه الدكتور حتى سعل، خشيت أن يسقط أمامي، ولكنه مسح لعاب فمه، وقال:

- ما حصلش طبعًا.. إيه العبط ده؟!

دخل الخادم بالقهوة، وضع الصينية أمامي، ولكني لم أشعر به، ولم أر فنجان القهوة، ولم ألتفت إلى الخادم.

استطرد الدكتور:

- ده التعب اللي باقولك عليه.. وكان ياما يحكيلنا عن أصوات بيسمعها في السينما.. وكان بيحكّي مع صوت المرحومة مراته وهو في مطبخ شقة السيدة...

- وجلسة تحضير الأرواح؟

- ده وعد كاذب مني لم يتم.. عندي اهتمامات بالموضوع.. وعندي

كتب إديتهاله.. بس عمري ما عملت جلسة تحضير أرواح.

- وفريدة.. ممكن ألاقيها فين؟ كان عايز يديها شقة السيدة.

- لا توجد في حياته امرأة بهذا الاسم.. بيحب الستات بس ولا واحدة عاشت معاه.. كان ملول.. ما يكررش واحدة مرتين.

قلت في نفسي: "هذا الرجل كاذب أو مجنون"، ولكن شيئًا في داخلي كان يصدقه، لا شيء يدعوه للكذب بشأن صديق عمره، وحالة جدي بعد حادثة ابنه وزوجته كانت سيئة، وتخاريف النهاية معروفة، وعليها شهود رأيتهم وسمعتهم في قليوب.

قلت للدكتور حانقًا:

- جدي كان صادق في إيه لما بيكذب في الكلام ده كله؟ ده عنده مذكرات كاملة!

قال الدكتور بثقة:

- لم يكتب مذكرات قط.. ولا طاقة له ولا صبر على الكتابة.. كان بيحكي لي عن محاولاته الفاشلة في كتابة يوميات أو ما شابه.. لكنه لم يترك مذكرات.. اشترى كشاكيل وكراريس وأجندات.. ستجدها فارغة.

وقفت حائرًا، غير قادر على المغادرة، وغير قادر على الجلوس، لمحت نظرة شفقة في عينَي الدكتور، قال مُنهيًا الحوار:

- بهجت توأمي وأخويا.. أطيب قلب وأحن إنسان.. جدع وراجل وصاحب مزاج.. لكن أحلامه كانت مشكلته.. مش قادر يحققها..

ومش عارف يتخلى عنها.. مُرجانة بس كانت الراحة والسكن.. كانت حياة بديلة إلى حين.. بهجت ما يتعوضش.. لا هو ولا أحلامه.

مددت يدي، فصافحني متشبثًا بي، رأيت لمعة دموع في عينيه، لم أشرب القهوة، ولم ينتبه أنني لم أشربها، أعطيته ظهري وغادرت، كانت آخر كلمات سمعتها منه عبارة باكية:

- ما تنسانيش بزيارة.

في التاكسي الذي أعادني إلى السيدة، كنت أبكي بصوت عالٍ، ادعيت للسائق أنني تلقيت توًّا خبر وفاة والدي، وأنني ذاهب لتشييعه ودفنه، فأخذ يهدئني، ثم تعب فتركني أبكي مثل طفل كبير.

كنت أبكي جدي الحائر بين أحلامه وقدراته وظروفه، أبكي ذكرياتي الطفولية في شبرا، أبكي أبي وأمي، لم يكونا يستحقان هذا العذاب ميتين وحيّين، وكنت أبكي نفسي، وحدتي وقهري وحيرتي ومخاوفي وغربتي خارج وداخل بلدي.

في البيت هاجمني الأرق، حتى أذان الفجر، ذهبت إلى المكتب، وأخرجت الأجندات والكشاكيل والكراسات البيضاء، وتسليت بتمزيقها، بكيت وضحكت، فكرت أن أمزق ما كتبته في أجندتي، ولكني تراجعت.

فكرت في كلام فرج وبهجت من ناحية، وكلام رؤوف من ناحية أخرى، ربما كان الثلاثة من المجانين، أو من الحمقى، لن أفكر في صواب شهادتهم، أو في خطئها، فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم، لن أهتم بشبح مُرجانة من الأساس؛ أشباح حياتي التي تطاردني أولى

وأهم.

تشاجرت في الصباح مع مريم عندما اتصلت بي، لمثها بحدة على استدعاء همس، فقالت إن سمير هو صاحب الفكرة والسيناريو، وإنها فقط لم تمانع، وساهمت في إقناعي، ليست عبيطة لتتصور أن علاقتي مع همس ستعود، ولكني لم أرفض من قبل أن ألتقي بحبيبة الماضي، واللقاء فرصة لمواجهة أشباحي، بدلًا من الهروب منها.

حكيت لها عن زيارة الدكتور رؤوف، قلت بصوت متحشرج مخنوق:

- قاللي ما فيش عفريت.. وما فيش فريدة.. وما فيش مذكرات.. وما فيش أي حاجة.

لدى مريم قدرة هائلة على تغيير الموضوعات المؤلمة، قالت بسرعة:

- لو كان ده وهم.. أنا بكلمك دلوقتي عشان حقيقة.. هنقابل شخص تعرفه من زمان هو اللي هيرسينا عن الجهة اللي بتشتري السينما المفقولة.. هابدأ النشر بعد أيام.

انتبهت لكلامها، وتعلقت بخيط قد ينقذني من الانهيار، وافقت على أن ألتقي مع مريم في أحد كافيهات الزمالك، بعد أن أخبرتني بأننا سنلتقي مع علم الدين الراوي، زميلي الذي عرّفته بها في سنوات الجامعة.

علم الدين الذي جعلني أتصفح أول مجلة سكس في حياتي؟ ما علاقته ببيع وشراء السينمات المغلقة؟ هل يعمل محاميًا في مكتب

كمال عبد الله؟ هل صار من كبار رجال الأعمال دون أن أعرف؟ ما علاقة مُرجانة بمجلات السكس؟ ما علاقة أي حاجة بأي حاجة في هذا البلد؟

ذهبت مرتديًا تيشيرتًا أبيض، وبنطلونًا أسود، بينما ظهرت مريم ببنطلون جينز وبلوزة صفراء عارية الذراعين، لاحظت زيادة المكياج عن المعتاد، رائحة البارفان الذي وضعته ثقيلة ونفاذة، على غير ما اعتدت منها، كانت تفضل المكياج البسيط، والعطور الخفيفة.

كنا نشرب العصير عندما دخل علم الدين، أصبح أكثر بدانة، وظهرت له لحية خفيفة، يرتدي بدلة مفتوحة الجاكيت،بسبب كرش ضخم، وكانت الكرافتة مفكوكة، بسبب شعوره بالحرارة، ورغبته في التقاط المزيد من الهواء.

احتضنني بعاطفة مؤثرة، وصافح مريم خافضًا رأسه، جلس طالبًا من النادل أن يحضر له قهوته كالمعتاد.

قالت مريم بعد الترحيب به، وبعد ذكريات تافهة مشتركة:

- علم الدين وافق يكون مصدر لن نذكر اسمه في الموضوع.. بيقول إن البيع والشرا مش عيب.. وإن ما فيش مؤامرة ولا حاجة.

قال علم الدين بعد أن فك المزيد من ربطة الكرافتة بطريقة تلقائية:

- طبعًا سبب أساسي للموافقة على الكلام معرفتي إن مريم صحفية بتحترم كلمتها.. ومش بتغير الكلام.. وكمان صديقة قديمة.. لكن الأهم إني فعلًا مش شايف إننا بنعمل حاجة غلط.. عايز أشرح

وجهة نظرنا من غير أسماء.. عشان ما يكونش الكلام من جهة واحدة.

قلت بصبر فارغ:

- إيه الحكاية يا راوي؟

- ولا حاجة.. مؤسسة خيرية إسلامية بتشتري أماكن لعمل مستوصفات ومراكز صحية.. وبتدور على حتت وسط الكتل السكانية.. مش بس بنشتري السينمات المقفولة.. لكن بنشتري قطع أرض فاضية.. وعمارات آيلة للسقوط.. وأي مكان يصلح يكون مستشفى أو مستوصف أو جمعية خيرية تعلّم البنات التفصيل.. أو حضانة نموذجية للنشء.. وبندي كورسات كمبيوتر كمان.

- يعني مش هتحتفظوا بالسينما زي ما قاللي كمال عبد الله؟

- الصراحة لأ.. بس إحنا واضحين مع ناس كتيرة.. إنت بالذات قالك كدة عشان عارفك عايز تحتفظ بالسينما أو على الأقل متردد في تغيير نشاطها.

- إنت بتشتغل في مكتب كمال؟

- لأ.. باشتغل في المؤسسة.. أنا التزمت بعد التخرج.. بس بدون تعصب أو تطرف.. لسة باكتشفهم وهمّ كمان بيختبروني.

- فلوسهم كتير يا راوي؟

- بالنسبة لمركزي ما فيش فلوس كتيرة أوي.. لكن فيه شغل.. فيه ناس بتقدرني.. فيه بعض الأمان والاستقرار.

ضحكت وقلت:

- كانت لي صديقة اسمها جنيفر بتقول ما فيش حاجة اسمها حب.. فيه دافع البحث عن الأمان المؤقت.

- يمكن.. فين المؤامرة بقى يا ست مريم؟ ناس بتشتري عقارات وتوثقها.. وبتعالج الناس بملاليم!

قالت مريم:

- من سينما لمستشفى؟

- مش كراهية للسينما يا مريم.. بس إنتي شايفة الظروف وحال المستشفيات.. وبعدين مين اللي قفل السينمات؟ إحنا؟ مش محتاجين نتآمر على الفن.. أهل الفن قايمين بالواجب وزيادة.. والحكومة بتعتبر السينما ملاهي.. كاتبين كدة على التذكرة.

صمتت مريم ولم ترد، جف ريقها، فاكتفت برشفة من كوب الماء.

عاد صوتها للتعليق:

- لو مش مؤامرة ومش خايفين.. كمال مخبي اسم رجل الأعمال اللي وسّطه ليه؟

- اسألي الأستاذ كمال.. كل واحد وظروفه.. بس إحنا كمؤسسة نشاطنا مسجل وعلني ومعروف ومتراقب كمان.

- يعني كمال ورجل الإعمال الغامض مجرد كباري أو محللين؟

- دي تعبيرات صعبة شوية.. في البيزنس حاجات كتير زي كدة.. سميها شطارة تجارة.. أو "داري على شمعتك تقيد".. بس ما فيش

ألغاز.. إنتوا اللي بتحبوا الدراما.

قالت مريم بلهجة محقق:

- كمال بيهدّد ولا بيقدم عرض؟ يقدر يؤذي؟

- قولًا واحدًا ما فيش تهديد ولا غصب ولا أذية.. كمال بيهوّش.. لا يقدر يؤذي عشان الدوشة والقلق.. ولا المؤسسة قالت له كدة.. ده كلام على مسؤوليتي.

نظر علم الدين إليّ قائلًا:

- يمكن إنت اتخيلت يا فؤش أدخل عيلكم ببندقية وجلابية ودقن اتنين متر.. بس أنا لسة علم الدين صاحبك القديم.. لو عايز تحتفظ بالسينما وتشغلها اتفضل.. من حكم في ماله ما ظلم.. إنت فاكر إن كل أصحاب السينمات مترددين.. كلهم باعوا يا جميل.. إنت الوحيد اللي مزرجن.. تلاقي المتر كمال بس عايز يجيب الفول مارك.. عايز مُرجانة.. اشبع بيها.. بناقص سينما يعني.

أصر علم الدين على دفع الحساب، قال إن الكافتيريا مكانه، عندما خرجت مع مريم، فتحت صدري لاستنشاق الهواء الساكن الشحيح، بينما وقفت لمراجعة أوراق ومحتويات شنطتها، قالت وهي تشير إلى تاكسي:

- أنا راجعة المجلة دلوقت.. عندي كلام كتير بس مش وقته.. خد بس التعليقين التيك أواي دول: ما تصدقش كل كلام علم الدين الراوي.. واحفظ اسمه كويس لإنه هيوصل لأعلى منصب في المؤسسة خلال سنوات قليلة.

- يعني مؤامرة ولا مش مؤامرة يا أبلة؟

قالت مريم وهي تحتضنني وتقبلني:

- مؤامرة يا روحي بس زي الملبن.. مؤامرة إحنا مشتركين فيها.. بوعي أو بجهل.. ماتنساش تفكرني أعرفك الأيام الجاية على اتنين من أعز صحابي.. فراودة روزا.. عبد الله كمال وإبراهيم عيسى.

نظرت إلى السيارات المتكدسة في عز الحر، وقد أطلقت كلاكسات الاحتجاج، حلمت بأن يأخذني بساط الريح إلى حمام الشقة، لأحصل على دش بارد.

جلست في تاكسي لا يتحرك، أغمضت عينيّ، رأيتني نائمًا في مواجهة الشاشة البيضاء في سينما مُرجانة.

شعرت بحنين لا يقاوم لسماع صرخات العفريت المغدور.

-٨-

فؤاد الساعاتي

لا شيء أمامي إلا كتلة هائلة من اللون الأبيض، مثل سحابة هائلة، أحاول أن أتجاهل النظر إليها، فلا أستطيع، بياض مزعج بلون الكفن، أسمع صرخات وهمهمات وكلمات اختلطت ببعضها بعضًا، فلا أستطيع أن أميز منها حرفًا، أحاول أن أتحرك فتمسك بي يد قوية، تعيدني إلى مكاني، أفكر في مكاني وزماني، في الأصوات المحيطة، أفشل في أن أجد فكرة واحدة، بعد لحظات أشعر بألم خارق، لم يحدث أن عرفت هذا الوجع، لست بخير، هذا فقط كل ما أعرفه، حتى كوني على قيد الحياة موضع شك، ماذا لو كنت في عالم آخر كروح مجردة تتألم؟ ماذا لو كنت قد مت وأنتظر الحساب؟ عاجز ومشوش، أغيب وأعود مستيقظًا، ومسكونًا بالأفكار، فأتألم من جديد.

أنا فؤاد عمّار بهجت الساعاتي، الهارب من الوطن إلى الوطن، المعلّق بين الزمن والتاريخ والطبقة والحيرة والتشوش، ملك الحسابات والزوايا والمعادلات الهندسية، مشيّد العمائر والأبراج، الذي لا يستطيع أن يتخذ قرارًا تافهًا، ولا يمكنه ترميم حياته، وريث بيت قليوب، وسينما الجيزة، وشقة السيدة، والمختبئ في أجساد النساء، فاقد الأمان والثقة والمعنى، العاري إلا من قلب وحيد مثقل بالخيبات، الباحث في مُرجانة عن حلم مفقود، والمحارب دون سيف أو دروع.

صعب أن تحمل العالم فوق ظهرك، وصعب أن تكون منتميًا إلى

أسرة الساعاتي، حاملًا لجينات الجنون والمزاج والعقل والالتزام والفوضى والفن والنزق، لكني أحاول الاحتفاظ ببعض العقل، بمقاطع من حلم خافت، ببذرة شغف، بنصف شمعة، وببعض المرايا التي لم تنكسر.

أحب الحياة لأنني لا أمتلك غيرها، ولكني عاجز عن الفهم، وعاجز عن التحقق، لست مستعدًا لدفع الأثمان، التي دفعها جدي وأبي وأمي، ولست راضيًا بأن أكون رصيدًا في البنك فحسب، أبحث عن معنى يساعدني على ترويض الملل، والضجر، وساعات اليأس، وهاجس الموت، وسطوة العبث، وفوضى المدينة المزعجة.

أبدو خفيفًا مثل ريشة، ولكنها ريشة تصرخ وتتمزق، روحي لم تترك جسدي بعد، ما زالت تتشبث به، هذه يدي أخيرًا، أشعر بها وهي تتحسس وجهي، وتلمس ملامحي، روحي حرة، وجسدي مقيد، وبين الاثنين صراع شرس، يجعلني أتبدد، وأتحول إلى شظايا فوق السرير.

سرير؟ هذا وتد يمكنني أخيرًا أن أقيد فيه روحي المتعبة، سرير؟ أي سرير؟ في السيدة؟ أم في قليوب؟ أم سرير عم فرج؟

الذاكرة تحاول أن تشق غيومًا كثيفة، ولكنها تمتزج بضباب عارم، أبيض، بلون الموت، والألم يتركني ليعود، كائن أسطوري ينشب أنيابه في اللحم والعظم والعصب، ألم صافٍ وضيع، عذاب خالص، أتمنى الموت، فلا أجده.

مر يومان قبل أن أدرك أنني ما زلت على قيد الحياة، على سرير في عنبر في مستشفى أحمد ماهر، ووسط زحام هائل من المرضى

والأطباء والزوار، صرخات في كل اتجاه، ونداءات استغاثة، وآهات تشرخ الروح، وتحرم العين من النوم، وكلمات عن الزلزال المدمر، أنتبه أخيرًا إلى جبيرة بطول ساقي اليمنى، أحاول أن أتحرك، فلا أجد قوة ولا طاقة، تعود الذاكرة القاسية لما قبل لحظة السقوط.

كنت قد رتبت مع مريم موعدًا جديدًا للقاء الأصدقاء في ساحة مُرجانة، قلت لها إننا سنسميها هايد بارك كوبري عباس، ستلهمنا السينما بصالون ثقافي حر، سنحلم أن تكون مؤسسة ثقافية، ضحكت مريم، وطلبت مني فرملة الأحلام قليلًا، حتى لا أقع على جذور رقبتي، ولم تكن تعلم أنني سأقع فعلًا، وستنكسر ساقي، في محاولة جديدة من الهروب، ولكنه هروب جماعي هذه المرة، شاركني فيه العشرات والآلاف، عصر يوم ١٢ أكتوبر ١٩٩٢.

كنت أتأمل مروحة السقف، ممددًا فوق سرير بهجت الساعاتي، أحاول أن أغفو، أغمض عينيّ، فتهاجمني الأفكار، فقدان العمل في دبي، الوحدة، الفرص التي تضيع، انتبهت لهزة غير عادية، فتحت عينيّ، فوجدت المروحة على وشك أن تنخلع من مكانها، قفزت إلى الشباك المفتوح، فرأيت مئذنة الجامع تتحرك جيئةً وذهابًا، لم أعد أفكر أو أتحكم في جسدي، كأن يدًا تدفعني دفعًا، وتقذف بي في جزء من الثانية إلى خارج الشقة، سرعة وقوة لم أمتلكهما قط، طاقة حياة تقاوم الفناء.

عندما نظرت في لمحة خاطفة إلى بئر السلم، وجدت سكان العمارة ينحدرون فوق على السلالم، يحوقلون ويدعون ويصرخون في فزع ورعب، غريزة خالصة تدفعهم إلى النجاة، خروج يوم

القيامة الصغرى، هرولت قدماي على السلم، لم أكن سوى روح تتأمل جسدًا خارقًا يعدو، ويطوي الزمن، لا أثر لعقل أو لهندسة أو لحساب، أنا جزء من العرض، ولكني أيضًا خارجه، غامت رؤيتي عند الدور الأخير، رأيت كتلًا ملونة لا شكل لها، تتحرك وتتقافز وتصرخ وتزمجر، أصداء صوت عظيم وهائل، ممتزج بطرقعة تشبه هزيم الرعد، وكركرة السحب المحملة بمطر غزير مكبوت، قبل أن أدرك باب الخروج، اختل توازني، فسقطت على رجلي اليمنى، كل جسدي هبط بثقل الخوف والفزع والموت على رجلي، سمعت صوت طرقعة، صادرة من جسدي، مصحوبة بوحش الألم، لم أجد صوتًا لأصرخ، ولم أجد روحًا لتزهق، صرت كومة من العجز، لا تشعر ولا تحس ولا تعي.

قالت مريم عندما زارتني بعد العملية:

- كلنا انكتب لنا عمر جديد.. خدنا فرصة تانية للحياة.. المشكلة هنعمل إيه بالفرصة دي؟ احمد ربنا يا روحي.. كتير ماتوا.. وكتير اتشردوا.. عمارة كاملة وقعت في مصر الجديدة.. فيه ناس نايمة في خيام إيواء في مدينة السلام.. الصورة زفت يا فؤش.

- وبيت السيدة؟ وسينما مُرجانة؟

- البيت صامد.. بس هيحتاج تنكيس في الغالب.. والسينما عايشة بس الواجهة اللي فيها الاسم وشكل عفريتة هانم وقعوا.. والشاشة كمان اتهدت.. وعملت كتلة من أطلال الحجارة.. كنت هناك إمبارح وصوّرت كل حاجة.

من أين تستمد مريم هذه الطاقة؟ حياة تسير على قدمين، أحبها،

أعلم أنها ليست سعيدة تمامًا، ولكنها تعرف فيما يبدو كيف تداوي جراحها في صمت، ودون أن تبكي أو تصرخ أو تقول لأحد، تمنيت أن تكون أمي، أو حبيبتي، أريد أن أغفو على صدرها.

- كله بخير.. الجري في المواقف دي هو كل الجدعنة.. بس صبري البنا؟

- ماله؟

- ربنا يرحمه.. كان واقف في بلكونة شقته.. في الغالب كان بينظر للسما.. أو بيسمع أغنية لعبد الوهاب.. وقعت بيه البلكونة.. مات.. يمكن دلوقتي بيبصلنا ويضحك.

انفجرت في نوبة بكاء عاصفة، أفزعت مريم، والمرضى المجاورين، كانت دموع قهر مكبوت، حزن على صبري الذي لم يأخذ شيئًا، والذي تألم حيًا وميتًا، وحزن على نفسي، على عجزي الذي طال الجسد، بعد أن تسلل إلى الروح، وحزن على ضحايا زلزال مدمر، وعلى أطلال شاشة مُرجانة، لم يكن ينقص جيلنا المنكوب إلا معاينة الزلازل التي نتفرج عليها في الأفلام.

لم تتردد مريم في احتضاني، مثل أم تخفف من بكاء طفلها، لم تهتم بنظرات الأعين، عاودتها روحها المرحة، فقالت:

- معلش يا جماعة.. أخويا طول عمره زهيِّف.

لم أتمالك نفسي فضحكت، بينما تسيل الدموع من عينيّ، وسط دهشة الجميع، ظللت حديث العنبر طوال أيام إقامتي في المستشفى، رغم التعاطف، كانوا يعاملونني كمضطرب أو مجنون،

وكنت سعيدًا بهذه الصفة، لا أوافق عليها، ولا أنفيها، كنت في البرزخ، على حافة حياة أخرى.

جاء سمير تسبقه قفشاته، سيكون أمرًا رائعًا لو أحب مريم وأحبته، سينجبان أطفالًا من شغف وخيال، أحببت سمير وذكاءه وخياله، وكان أيضًا يحبني، ويشفق عليّ، رأيه فيّ أفضل بكثير من رأيي في نفسي، كان يسميني منصور باهي التسعينيات، على اسم أحب أبطال رواية ميرامار إلى قلبه، منصور ذلك الحالم الحائر، المثقل بعجزه وخيبته، أحببته أيضًا، ولكني كنت أرى أن مقارنتي بمنصور أكثر مما أستحق، أمر مهين له أن يُشبّه بي، أنا أقل وأضعف منه بكثير.

قال سمير متفلسفًا:

- الزلزال بيفكرنا يا عزيزي بأن الجمود والسكون وهم.. كل شيء ممكن يتغير جذريًا.. حتى تفكيرنا ونظرتنا للحياة.

- ما فيش طيب حاجة أخف من كدة عشان نعرف إن التغيير بيحصل.

ضحك سمير وقال:

- فيه طبعًا.. إن الإسماعيلي يكسب الدوري.. أحلى فريق بيلعب كورة.. بطل موسم ٩٠/٩١.. ده مش تغيير برضو.

شاركته الضحك، ولكنه سرعان ما عاد من جديد إلى تأملاته:

- أعجب حاجة إن كلما زاد الخطر احتشدت جوانا طاقة الحياة.. وكلما اقترب الموت زاد تمسكنا بالحياة.. الاستقرار قاتل يا فؤاد.. باتكلم عن الاستقرار بمعنى الركود اللي عايشين فيه.

فكرت في المعاني العظيمة التي يكتشفها سمير في أبسط التفاصيل، يبدو فعلًا أن إرادة الحياة تحتاج من يستفزها، فتتجسد في صورة كائن عملاق حملنا جميعًا على ظهره، في رحلة الهروب من خطر الموت.

سمير:

- طبعًا مأساة.. فقد الأهل والأقارب والمعارف.. هدم بيوت وتشريد.. بس دراما واقعية لا يمكن محاكاتها.. مسرح كبير للتطهير.

- لا تنسى الدراما أبدًا.

لمعت عينا سمير، أعرف هذه اللمعة، التي تعني عثوره على فكرة.

- فاكر ثرثرة مُرجانة أمام الشاشة.. فكرة علاقتنا بالأطياف والأشباح.. والعالم كله اللي مش هيبقى بس أوضة واحدة.. ده هيبقى بلكونة واحدة مفتوحة على السما.. العالم كله هيبقى سينما مُرجانة.. من غير سقف.. مش هتعرف تمنع حاجة.. ولا توقف عرض فيلم زي ناجي العلي.

استطرد في حماس محركًا يديه:

- مش هتكون هناك فواصل بين الحلم والواقع.. ولا حواجز بين الشاشة وقاعة العرض.. هندخل لهم جوة الشاشة.. وهتخرج الأطياف للمدينة.. وتمشي كمان في شوارعها.. كله على كله على رأي عدوية.

فكرت في أن مريم تحرر إرادتي، تُشعِرني بالقوة، وسمير يحرر

خيالي، داخلنا مارد اسمه الخيال، فلماذا نقنع بالواقع؟ خففت عني زيارات مريم وسمير كثيرًا من الألم، أخذتني إلى أحلام عجيبة متفرقة، في المنام واليقظة، استمرت طوال فترة إقامتي في المستشفى.

لو وضعت هذه الأحلام بجوار بعضها بعضًا، لصنعت حلمًا واحدًا، ولكني كنت أسعد بها وأنتظرها، وأشعر بالراحة معها، وأنفصل عن ضوضاء وصرخات الأطباء، والحالات الجديدة، وزيارات الأهل والأصدقاء، وحوارات يومية بأصوات عالية.

كانت الفكرة التي قالها سمير قد تحولت على شاشة أحلامي إلى حركة وألوان وموسيقى، خرجت أطياف بعد سقوط الشاشة إلى شوارع المدينة، ودخلنا نحن إلى ما وراء الشاشة.

رأيت جدي بهجت يمسك بيد سامية جمال في هيئة عفريتة هانم أو مُرجانة، ويسيران في سعادة على كوبري عباس.

رأيت بطة في شباك التذاكر، تقطع تذكرة لنجلاء فتحي في سن الشباب، وباتعة تحمل كشافًا لتقود عادل إمام للجلوس على مقعده.

رأيت زكي رستم يؤنبني ويتهم فؤاد الصغير بالضلال، فتأخذني مريم في حضنها، ويبتسم أبي في رضا.

شاهدت أسد مترو جولدوين ماير وهو يطارد المارة الضاحكين في ميدان الجيزة.

رأيتني أتبادل القبلات مع مارلين مونرو في شقة السيدة، وصبري البنا يشارك فرقة رضا الرقص في سعادة على أنغام الأقصر بلدنا.

وكانت مريم ترقص مع سمير على أغنية أنا قلبي دليلي، بالضبط يمكن أن تراهما خلف أنور وجدي وليلى مراد، والمتر موريس جالس على الأرض، يتبادل الضحكات مع محمد أبو سويلم.

كنت أرى العالم بعين الخيال، وأستعيد تدريجيًا قلبي وعقلي وروحي وذاكرتي، وكأنني مولود يفتح عينيه على الحياة لأول مرة، يبكي ويتألم، لا يهتم بما يقوله الآخرون عنه، ولكنه يدرب نفسه على التكيف، على ترويض ظروفه، وعلى اكتشاف الحياة.

قالت الطبيبة النحيفة العصبية:

- مش كفاية كدة؟! إنت بقيت كويس خلاص.. تقدر تخرج وتمشي بمساعدة عكاز.

قلت:

- يا رب أقدر.. يا رب أعرف.

قبل الخروج، زارني المتر وفادي وبقية الشلة.

قلت للمتر مداعبًا:

- إلا عمرك ما قلتلي اعمل كذا عشان تتخلص من الحيرة والقلق؟

رد على الفور:

- ولا عمري قلت اعمل كذا لجدك أو لأبوك أو لمريم أو لفادي.. القرار لصاحبه.. والحيرة طبيعية ومش مبرر للهرب من اتخاذ القرار.

تحول صخب العنبر إلى ونس، خرجت الضحكات من قلب المأساة، شعرت بغصة وألم لمفارقة المكان والناس، كانت مريم تداعب

الجميع بالقفشات، وعدَت المرضى بأن تعيدني إليهم زائرًا، ولكن سليمًا معافى، وجديد لانج.

عدت إلى شقة السيدة لأجد باتعة وعم فرج، تبادلا زيارتي يومًا بعد يوم، لم يتغير شيء سوى أعمدة خشبية تسند جدران البيت، ويافطة تحذير على الباب، لأن البيت تحت التنكيس.

في أول نزول إلى الميدان رأيت بطة، دعت لي، وهي تلمع الحذاء بيديها الصغيرتين، الملطختين بالورنيش الأسود.

قالت مريم إنهم سيقيمون احتفالًا بعودتي، ستحضر الشلة إلى سينما مُرجانة، وستكون ليلة طعام وغناء، بس المرة دي فول وفلافل لظروف ما بعد الزلزال.. ما حدش له نفس ياكل.

اخترنا عمدًا منتصف الشهر العربي، أحضرنا قمر ١٤ بتمامه، ولكننا جلسنا مكدسين في مساحة أصغر، بجوار أطلال الشاشة، وقعت فانكشفت هوة مظلمة ومخيفة خلفها، مساحة من فراغ كالعدم.

بعد الأكل والشاي، بدأت ثرثرة جديدة.

مريم تقول:

- سقوط الشاشة علامة في اتجاهين: يلا هدوها وابنوها من جديد أجمل وأحسن.. أو بيعوها واتخلصوا منها بلا قرف.. حسب ما نفهم ونعوز.

وتقول فاطمة زاهر:

- خوفي على الواد بقى مرضي بعد الزلزال.. مش باسيبه أبدًا..

عايزة دكتور نفسي شاطر.. أنا تعبت.

ويقول فادي:

- شفت ضعف البشر وقوتهم في بروجرام واحد.. حماقتهم ونبلهم.. ضحكهم وهزلهم.. كفاية تخفف ألم إنسان.. دي معجزة.

ويحكي السيد عزمي:

- الجرايد بتقول الأساتذة جريوا وسابوا التلامذة.. أمّال كانوا هيعملوا إيه؟ يعني أشيل بنتين وأجري بيهم.. وحضرتك يا اللي بتنتقد مش كنت بتجري معانا برضو بس في مكان تاني.. عالم صفيقة يا جدع!

يعود سمير إلى نوادر حدثت له:

- قلت أروح سينما كريم أتفرج على جزء تاني من فيلم Hot shots، الفيلم مسخرة.. لكن وحياتكم لا عارف أضحك.. ولا قادر حتى أبتسم.. وفي نص الفيلم فوجئنا بهزة أرضية.. تابع من التوابع.. لقيت الصفوف التلاتة الأولى بتجري.. في لمح البص اتبخّروا.. فضحكت لأول مرة.. ضحكت من الرعب والخوف.. كملت السهرة في فرح صديق مخضرم.. له ١٥ سنة مش عارف يتجوز.. عمل فرحه على سطوح في بيت في باب الشعرية.. وفي عز الرقص والغنا كانت فيه هزة أرضية تاني.. بس خفيفة ومحدش جري.. قيمة واحد ريختر كدة بتوقيت القاهرة.. ماكانش ناقص غير نزفهم بكلمات الأغنية الجديدة اللي اخترعوها بعد الزلزال.. نقول للعروسة: اترختري يا حلوة يا زينة.

نضحك بصوت عالٍ يعانق السماء ونور القمر، وتضحك باتعة من قلبها، بينما يواصل عم فرج القيام والجلوس، والقيام بواجب الضيافة في بيته ومطرحه.

يقول ببراءة:

- لو وقعت مُرجانة فوق نافوخي كنت هاتعب أوي.. أنقذتني علبة كليوباترا سوبر رحت أجيبها من الكشك.. ولما وصلت كان الكشك بيرقص.

يقفز سمير فوق الأطلال الحجرية، ثم يجلس فوق كتلة حجرية من أطلال الشاشة، قائلًا في حزن:

- مش متأكد إن صبري دلوقتي في مكان أحسن، بس متهيألي إنه كان محتاج يبص لسما تانية غير سمانا.

ويضيف:

- كان بيحب الغنا وعبد الوهاب.. وأنا عامل بروجرام غنائي يا رب يعجبكم احتفالًا بالعودة إلى مُرجانة.. واحتفاءً بذكرى صبري عاشق الغنا.

فتحت مريم شنطة كبيرة، أخرجت منها ريكوردر ضخمًا، ومجموعة من شرائط الكاسيت، تقدمت نحو الأطلال، التي تحلقنا حولها، التقط سمير الريكوردر والشرائط، وبدأ بإدارة الشريط الأول.

صدح صوت عبد الوهاب بمطلع أغنيته عندما يأتي المساء، فشعرت أنني أمتلك العالم، وليس سينما مُرجانة فقط، وقفت فاطمة ترقص على أنغام مقطع: هل ترى يا ليل أحظى.. منك بالعطف عليا..

فأغني وحبيبي.. والمنى بين يديا، يعيد عبد الوهاب ويطرب ويمتع، وتحوّل فاطمة كل جملة لحنية إلى حركة من ابتكارها، كان جسدها يتحدى فوهة الشاشة السوداء.

توالت الشرائط والضحكات، قديمة وجديدة، معروفة ومجهولة، حتى لولاكي سمعناها وصفقنا معها، كنا نتحرك بحرية، نرقص أحيانًا، باتعة وعم فرج رقصا أيضًا بطريقتهما، تلاشت مرارة السيد عزمي مؤقتًا، كان يسرق بعض الفرحة، قبل أن يعود إلى الغم.

بقي شريطان، قال سمير إنهما يحملان مفاجأتين، الأول شريط أغنيات فيلم آيس كريم في جليم، والثاني له حكاية، سثعرف في وقتها.

أدهشتني كلمات أغاني الفيلم، لم أحب قط عمرو دياب، ولم أشاهد الفيلم، ولكن أعجبتني الكلمات والأغاني كلها.

أغنية تقول: هتمرد ع الوضع الحالي، وشاب يغني: لو شمس الدنيا دي غابت.. أنا شمسي تشق الغيم، ويقول في نشوة: أنا حر إني أطير وأرفرف، ويتحدث بالتفصيل عن رصيف نمرة خمسة، وعن شخصيات الشارع والهامش المنسي.

استعدت الشريط أكثر من مرة، أخذنا نصرخ في جنون، نغني وكأننا نهتف في مظاهرة:

آيس كريم في ديسمبر.. آيس كريم في جليم

الناس حاسين بالبرد.. وفي قلبنا شم نسيم.

مددت يدي إلى مريم، بمساعدة العكاز، وقفت متأرجحًا، أحاول أن

أرقص، فيصفق الجميع، وتهتف فاطمة:

- أيوة يا فؤش.. فرّجنا المواهب الحلوة.

رقصت على طريقتي، ولكنهم أوهموني أنني محمود رضا في زمانه، تصفيق وهتافات، صرنا خارج الزمن والحاضر والماضي، نمتلك عالمًا مستقلًا، خاصًا بنا، يليق بمُرجانة، وبأهل مُرجانة.

يهتف سمير مثل مقدمي الحفلات:

- والآن مع الشريط الأخير.. مفاجأة سبيشيال.. هدية للعبد لله من عم إبراهيم رجب.. الموسيقار العظيم.. صدعته بإعجابي بأغنية نهاية فيلم الكيت كات، قلت له إنت وسيد حجاب ومحمود عبد العزيز وداوود عملتوا إكسير يهزم العجز.. أغنيتكم اعتبرناها النشيد الوطني لجيلنا كله.. بقينا نتكسف نقول عاجزين وإحنا شايفين الشيخ حسني بيطير بالموتوسيكل.. كان ممكن يموت بس الموت أفضل من العجز.

يضيف سمير بصوت عالٍ:

- والآن إليكم النشيد مسجلاً على العود خصيصًا من عم إبراهيم..إهداء إلى العبد لله.. وإلى كل سكان مُرجانة.

كنت أسمع الأغنية الساحرة لأول مرة، لم أشاهد الفيلم، استقبلتها بصوت إبراهيم رجب الغليظ المعبر، كان يحس بمعنى كل كلمة، يضغط عليها، كأنه يريد أن يعجنها وينحتها في الهواء، كان يغني حكاية غرام بالحلم والإرادة والخيال.

في الإعادة الثالثة للشريط والأغنية، كنت أقف لأرقص بشكل

أقرب إلى الحجل، وكانوا جميعًا يصفقون لي، ويضبطون الإيقاع والحركة والصفقة على صوت عم إبراهيم المنتشي بالحرية:

يالالا بينا تعالوا نسيب اليوم في حالو

وكل واحد مننا يركب حصان خيالو.

يعلو صوتنا فوق صوته، نهتف معًا في فرح:

درجن درجن.. درجن

درجن درجن درجن درجن.

رأيت لأول مرة عفريت مرجانة، وكان يرقص أخيرًا ويضحك، ويحتفل معنا بعد طول صراخ.

وكانت نسمات نوفمبر الصافية تبارك سعادتنا المؤقتة.

***

(تمت)